الفاصلة القرآنية
فى سورة النحل

الدكتــورة

عزيزة عبد الفتاح الصيفي

رئيس قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر – فرع البنات بالقاهرة

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م



إهـــــداء

إلى القُلوبِ المُؤمنـــةِ العــامرةِ بحـــبِ الله
إلى كلِ عينٍ تبـــكى خاشعةً من خِشْيةِ الله
إليكَ يا أخى المســـلم ويا أختى المُسْـلمة
عملٌ أُنجـــزَ فى محبةِ الله ومحبةِ رسولِ الله

د. عزيزة الصيفى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسـلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّـدُنْ حَكِـيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) .

أما بعـــد ..

فهذه دراسة بلاغية للفاصلة القرآنية فى سورة النحل .

وجد العرب عند سماع القرآن الكريم أنهم يستمعون ولأول مرة ، إلى كلام يتكون من ألفاظ يعرفونها ، ولكنه منظوم بعبارات لم يألفوها ، تقرع آذانهم ، فعلموا أنه يختلف عن طريقة نظمهم وتركيبهم للكلام .

فاندفعوا نحو سماعه اندفاعاً ، وعقولهم ما بين الدهشة والحيرة ، دهشة لسماع هذا الترتيل العجيب الغريب ، وحيرة تملكـت نفوسـهم ، لمعرفة الأسباب التى جعلت لغة القرآن تختلف عن لغتهم ، وهى منها .

فظهرت نخبة من العلماء المؤمنين الذين سخروا حياتهم لخدمـة كتاب الله ، تفسيراً وشرحاً وتوضيحاً .

وقد أجهد العلماء أقلامهم وعقولهم ، وأعملوا الفكر منذ أن سمعوا كلام الله تُرتله الألسن ليل نهار ، أخذوا يتدارسونه ، ويبحثون عن سر ذلك الإعجاب وهذا التلذذ بقراءة القرآن وترتيله وسماعه .

واجتهد العلماء فى البحث عن الميزة التى ميزت القرآن عن سائر لغة العرب، فقد جاء بلغتهم وأساليبهم فى الكلام، ولكن ليس مثل كلامهم، بل وجدوه كلاماً معجزاً ، فتحيروا كثيراً فى معرفة مواطن الإعجاز .

وقد تم البحث فى الفاصلة حسب موضوعات السورة ، فجـاءت الدراسة فى ثلاثة وعشرين موضوعاً ، ثم جاءت الخاتمة تحمـل أهـم النتائج التى توصلت إليها الدراسة .

المدخل الأول :

تنبه العلماء إلى تلك اللغة المميزة التى نزل بها القرآن ، وتنبهوا إلى خواتيم الآيات ، كيف تتم بسلاسة ، وجدوا أن هناك خصائص فـى آيات القرآن ليست فى كلام البشر .

ومن هذه الخصائص الفاصلة القرآنية توقفـوا عنـدها وأخـذوا يتدارسونها ليفرقوا بينها وبين السجع فى كلام البشر ، مع أن السـجع ليس عيباً فى الكلام إذا جاء على نظام مخصوص عرّفه العلمـاء وإذا جاء تابعاً للمعنى دون تكلف .

فالعيب فقط فى سجع الكهان الذى نها عنه الرسـول ﷺ ، ذلـك السجع المتكلف الذى لا طائل من ورائـه ولا فائـدة سـوى الجـرس الموسيقى الفارغ من المعنى .

والفاصلة القرآنية هى الكلمة فى آخر الآية ، وهى كالقافيـة فـى الشعر والقرينة فى السجع ، وقيل : كلمة آخر الجملة " [1] .

ولم يأل العلماء جهداً فى تفسير معنى الفاصلة اصطلاحاً .

---

(١) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/٢٩٠ دار التراث ، القاهرة .

وقد ذهب الزركشى إلى : أن فواصل القرآن الكريم لا تخرج من هذين القسمين بل تنحصر فى المتماثلة والمتقاربة " [١] .

وقد نقل السيوطى[٢] فى الاتقان عن الإمام فخر الدين الرازى وغيره – يقصد الرومانى والباقلانى وابن سنان – نقل عنهم القول ذاته، بأن الفواصل لا تخرج عن المتماثلة والمتقاربة .

والفواصل المتماثلة لها مسمى آخر وهو (المتوازية) ، وكذلك المتقاربة تسمى (المتوازنة) .

وقد ذهب الدكتور/أحمد بدوى[٣] إلى وجود نوع ثالث فقد تنتهى السورة بفاصلة منفردة وهى: التى لم تتماثل حروف رويها ولم تتقارب.

وكان لابد من تدارس لغة القرآن والتعرف على نظمه ، إنه " ذلك النظام الصوتى البديع الذى قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آناً بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى عندها راحته العظمى " [٤] .

ومراعاة الفاصلة فى القرآن ، أساسه إفادة المعنى وتمكينه ثم المحافظة على النظام الصوتى فى ختام الآيات ، بشرط أن ذلك لا يمس المعنى ولا يغيره ، بل يناسبه ويجليه .

---

(١) البرهان للزركشى ٧٥/١، تحقيق محمد أبو الفضل، ط ٣ دار الفكر العربى ١٩٨٠م، ط ١ دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م القاهرة .

(٢) راجع الإتقان فى علوم القرآن ٣١٤/٣ ، ٣١٥ .

(٣) انظر من بلاغة القرآن د. أحمد بدوى ٨٨ ط ٣ نهضة مصر ١٣٧٠ هـ/١٩٥٠ م .

(٤) النبأ العظيم : د. محمد عبد الله دراز ص ١٠٢ ، دار القلم بيروت ط ٤ سنة ١٩٧٧.

وأهمية الفاصلة القرآنية تتضح إذا تُركت ، ورُتل القرآن بدوها ، فإن " العقل يقدر القوة اللازمة لإدراك المقاطع ، فـــإذا زاد المـــتكلم أو نقص ، أو غير فى مقطع عن المألوف هيئته ، تعثرت به أذن السامع ، وشق عليها ذلك ، كمن يسير فى سهل مستو على غير انتباه ، فإنّ أقلّ خلل فى الطريق من ارتفاع أو انخفاض ، أو اعتراض حجر – بخلاف ما هو مقرر فى ذهنه – يوجب عثاره وتأذيه " (١) .

إذاً وجود الفاصلة سبب لتحسين الكلام ، وتمكـــين القـــارئ مـــن التطريب ، الذى كان من عادات العرب عند سماع الخطب والأشعار ، يقول سيبويه " إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا " (٢) فكيف يكون طربهم إذا كان ما يرتل عليهم هو القرآن الكريم .

المدخل الثانى :

سورة النحل وآياتها ثمان وعشرون ومائة ، من الســـور المكيـــة التى تشتمل على موضوعات العقيدة الكبرى : " الإله الواحد ، والوحى، والبعث والنشور " . كما تعالج السورة موضوعات أخرى عـــن دلائـــل قدرة الله والوحدانية ، وخلق العالم الذى نعـــيش فيـــه مـــن الســـموات والأرض ، والبحار والجبال ، هذه الأرض التى مهدها الله لحياة الإنسان فجعل فيها سهولاً ووديانًا ، وأنزل المطر ، وأنبـــت الـــزرع ، وســـير النجوم ليهتدى بها والفلك تجرى فى البحر بأمره .

---

(١) فلسفة البلاغة : جبر ضومط ، ص ١٤٢ ، بيروت لبنان .

(٢) الكتاب لسيبويه ٢٩٨/٢ ، ط الأميرية ، القاهرة ١٣١٦ هـ .

وغير ذلك الكثير من الدلائل على قدرة الله عز وجل ، فقد أنعم الله على الإنسان بمختلف النعم يستطيع أن يراها ويشاهدها فى نفسه وفى الكون من حوله إنها نعم ظاهرة واضحة يراها ويدركها بالسمع والبصر وبالعقل وبالقلب إذا عجز عن الرؤية بالعين .

وقد سميت بسورة " النحل " لاحتوائها على كثير من العبر والعجائب التى تدل على قدرة الخالق وعجيب صنعه فى عالم النحل وفوائد عسله ، كما توصف بأنها سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من النعم .

ولما كان الوحى الذى نزل على محمد ﷺ مجال شك ونقاش واختلاف بل وإنكار ، فقد نزلت الآيات الأولى تشير إلى ذلك وتوضح كيف كذبوا بالوحى وبقيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذى أنذرهم وتوعدهم به .

ولما كان معروفاً عن السور المكية قصر عباراتها بما يشتد قرعه على السامع فإن سورة النحل برغم كونها مكية إلا أن معظم آياتها من الطوال ، فيها إسهاب وتوضيح وتفسير وتعليل .

وما يهم البحث أن الفواصل فى سورة النحل تنوعت ما بين المتقاربة والمتماثلة ، والمطرفة التى تندرج تحت المتماثلة **(بأن تتفق الفواصل فى حروف الروى لا فى الوزن)** .

ولما كان مبنى الفواصل على الوقف ، فإنه شاع فى السورة مقابلة المرفوع بالمجرور والمفتوح والمنصوب – غير المنون – وبالعكس .

فالوقف دليل على وقوع الفاصلة وهو تسكين حرف الروى فى الفواصل مما يؤدى إلى التماثل باستمرار لتماثل الحرفين ، أو التقارب ، لتقارب الحرفين فى الفاصلتين .

ورغم اختلاف العلماء فى تحديد موقع الوقف والفاصلة ، إلا أنـــه اتُفق على أن الفاصلة فى آخر الآية ، ولابد من الوقف لتحقيق التزاوج بين الفواصل .

قال ابن الأنبارى : " من تمام معرفة القرآن الوقف والابتداء ، إذ لا يتأتى لأحد معرفة معانى القرآن إلا بمعرفة الفواصل " (١) .

وآيات سورة النحل لم تختتم كلها بحرف النون ، ولكن كان هـــو الحرف الغالب ، وقد شارك معه حرف (الميم ، الدال ، والراء) وكلها من المتقارب مع النون .

كما جاءت الفاصلة فى كل الآيات ، مختومة بكلمة المقطـــع مـــن الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون ، وأحياناً (الميم ، والدال ، والراء) .

وقد بين الزركشى الحكمة فى ذلك إذ يقول : " وحكمتـــه وجـــود التمكين من التطريب بذلك " (٢) .

وبقى أن نتوجه إلى آيات السورة ، للاستيضاح ومحاولة التوصل إلى مكامن الروعة والجمال ، والقيمة البلاغية العالية فى فواصلها .

---

(١) منار الهدى فى بيان الوقف والابتداء ، للأشمونى ، ص ٥ ط ٢ م الحلبى ١٩٧٣ .
(٢) البرهان للزركشى ٦٨/١ .

التحليل البلاغى للفاصلة

وللقيام بتحليل الفاصلة فى آيات السورة وُجِد أنه من المفيد تقسيم الآيات إلى موضوعات أو أفكار، للنظر فى الفواصل ومعرفة نوعها وطريقة صياغتها ، خاصة أن الفاصلة تتنوع أشكالها وأنواعها من آية لأخرى :

قدرة الإله على الوفاء بالوعد والخلق :

قال الله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّه فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ المَلائكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل: ١ – ٩).

بدأت السورة بالفعل الماضى والمعبّر عن المستقبل ، والمراد به إسكات هؤلاء المشركين ، ووضع الفعل موضع المتحقق أى أن الله تعالى أمرُهُ آت لا محالة ، " فالقياس يأتى ولكنه لما كان آتياً لا محالة اعتبر كأنه قد أتى وأنه فعلاً قد أحاط بالحياة " [(١)] .

وبتأمل الفاصلة فى قوله ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يُلحظ أنها ممكنة[(٢)] ، حيث ناسبت ما قبلها إذ أن الكلام ممهد لها دال عليها،

---

(١) خصائص التراكيب : د. محمد أبو موسى ، ص ٢٠٧ ط وهبة ط ٣ القاهرة .

(٢) والتمكين ويسمى ائتلاف القافية (فى الشعر) والقرينة (فى النثر) ، وفى القرآن : أن يمهد فى الآية تمهيداً تأتى به الفاصلة ممكنة فى مكانها، مستقرة فى قرارها " . راجع الإتقان فى علوم القرآن لسيوطى ٣٠٢/٣ والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ٧٩/١.

فالمعنى فيها يناسب ما جاء فى أول الآية فى قوله ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ .

بمعنى أن الله تعالى تنزه وترفع عن إشراكهم ، وعن أن يكون له شريك ، وشركهم هنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب ، فقد كان المشركون يستعجلون ما وُعِدُوا من القيامة ، ونزول العذاب بهم يوم بدر كنوع من التحدى ، تكذيباً واستهزاءً بالوعد .

والله سبحانه وتعالى قد كشف حجج الكفار بإنزال الوحى فى قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ .

يقول الله تعالى لملائكته أعلموا الرسل قولى لا إله إلا الله كى يخبروا الناس وينذروهم ، فأتت الفاصلة (فاتقون) فيها تمكين ، ومستقرة فى مكانها .

إذ أن إنذار أهل الكفر بأنه لا معبود إلا الله يقتضى أمرهم بالتقوى، أى خافوا عذابى ، وزاد من بلاغة الفاصلة أن جاءت بأسلوب الالتفات فالخطاب للمستعجلين وبفعل أمر واحد هو أبلغ الأفعال .

ثم تبدأ بعد ذلك الآيات بذكر البراهين الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته . فيقول :﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ .

فإن خلق السموات والأرض دليل قدرة ، خلقهما بالحق الثابت والحكمة الفائقة ، لا عبثاً ولا جزافاً .

= يسميه البلاغيون تشابه الأطراف ، وهو : أن يختم الكلام مما يناسب أوله فى المعنى. وهو نوع من مراعاة انظير ، وهو : أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد. (الإيضاح للخطيب القزوينى ٣٥٥ : ٣٥٧ دار الكتب العلمية بيروت ط١ سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

لذلك يقول ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فتكررت الفاصلة مـــرتين ، فى آيتين مختلفتين وإن كانت المناسبة واحدة ، مما يشعر بعظمة جلال الله وقدره ، لأن خلق السموات والأرض يجعله متفرداً بالألوهية .

لذلك جاءت الفاصلة تمجد وتقدس الله عن الشرك والنظير ، فـــإن أول الآية يستدل بها على خاتمتها .

كذلك فإن خلق الإنسان من نطفة دليل قدرة .

لذلك جاءت الفاصلة منددة بهذا الإنسان الجاحد ، الذى خلق مـــن ضعف فإذا به بعد تكامله يصبح بشراً مخاصماً لخالقه ، يكابر ويعاند ، وقد خلقه الله عبداً لا ضداً .

يمكن ملاحظة مجئ الفاصلة بصيغة المبالغة (خصيم مبين) على وزن (فعيل، فعيل) وما أحدثه ذلك من إيقاع متناغم يزيد من تناسق الكلام.

وليدل على تأكيد خصومة هذا الإنســـان لخالقـــه ، وأنـــه دائـــم الخصومة مستمر وهو واضح فى ذلك مبين ، لا يخفى خصومته .

يتضح فى الآيتين الموسيقى الداخلية التى تنبعث من نظم الكـــلام وتآلف الفواصل .

ثم يتابع ذكر النعم التى منها خلق الأنعام للمنفعة فى قوله تعالى :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

وتقديم الأنعام فى الآية السابقة (لا يفيد القصر) [1] لأن التخصيص يقتضى أنهم لا ينتفعون إلا بها ولا يأكلون إلا منها .

(١) راجع دلالات التراكيب : د. محمد أبو موسى ، ص ١٨٢ مطبعة وهبـــة ط ٢ ســـنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م القاهرة .

وخلق الأنعام لخدمة الإنسان ومصلحته ، فإن فيها منافع كثيرة وكذلك منها يأكلون ، ولما كان الأكل من أعظم المنافع .

فقد ختم به الآية فجاءت الفاصلة وقدم الجار والمجرور (منها) للتقرير والتأكيد، والتقديم مؤذن بالاختصاص ، وكذلك لمراعاة الفاصلة، فلو قيل (تأكلون منها) لتغير المعنى واضطربت فواصل السورة .

و (من) فى الآية للتبعيض أى : منها ومن غيرها فإن الأكل هو الأصل ، فقد ذكرت المنافع بجملة ثم خص منها مفعة بالذكر لأنها أعظمها ، وجاء الفعل (تأكلون) مناسباً لسياق الفواصل مساعداً على توازن الإيقاع .

وبعد أن عدد سبحانه منافع الأنعام ذكر التجمل بها فى قوله تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ .

فإن الأصل أن يكون السراح قبل الرواح ، فجاءت الفاصلة بتأخير ما حقه التقديم ، وطابق ما قبلها ، فإن بين (تُرِيحُونَ وَتَسْرَحُونَ) مطابقة ظاهرة ، ساعدت فى إبراز تناسق الكلام وتوازن إيقاعه .

ومن الملاحظ أن الآية تقابل الآية التى قبلها فى المعنى ، إذ قابل المنفعة الضرورية بالمنفعة الكمالية ، وأطلق (الجمال) وأراد (التجمل) والمعنى : " أنه لنا فيها جمال وعظة عند الناس باقتنائها ودلالتها على سعادة الإنسان فى الدنيا " [1] .

وقد ذكر المفسرون أن تقديم الإراحة على التسريح لغرض وهو أن منظرها عند الإراحة أجمل وقد روعى فى الفاصلة وجود

(١) البحر المحيط ، ص لأبى حيان الأندلسى ٤٦٢/٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١، ١٩٩٣/١٤١٣.

الازدواج فإن السـرح يكون أولاً بالغـداة والرواح يكون بعـد ذلـك فى العشى .

فإن عودتها واستقرارها فى مكانها بجوار أصحابها ، يتجملون بها ويباهون بامتلاكها، وقد يكون تقديم (تريحون) يوحى باستمرار الثبات والفعل (تسرحون) يوحى بالاستمرارية وعدم التوقف ، ففيه امتداد للفعل فى الزمن ، وحرف السين وما فيه من زيادة رنين الصوت المهموس .

وتكرار ظرف الزمان (حين) زاد من تلائم الإيقـاع وانسـجام الكلام ، وترابطه .

ويستمر فى الحديث عن الأنعام ومنفعة أخرى لها فى قوله تعالى:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُـسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

اختلفت الفاصلة فى هذه الآية عن سابقتها ، فجاءت جملة اسـمية مؤكدة من الضرب الإنكارى ، وفيها تمكين للمعنى فى الآية قبلها ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ[1] لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ختمت بالميم فى حين أن كل ما سبقها (بالنون).

فجاءت الفاصلة من المتقارب (لتقارب حرف النون والميم فـى المخرج) كما نلاحظ إظهار لفظ الجلالة (إن ربكم) بدلاً من الإضمار ، واتصاله بالضمير للتأكيد على قربه من الناس .

يريد أن تلك الأنعام تحمل أثقالكم إلى بلد بعيـد قـد علمتم أنـكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة .

---

(١) يقول السيوطى : إذا اجتمعت (إن واللام) كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات ، لأن (إن) أفادت التكرير مرتين فإذا دخلت اللام صارت ثلاثاً . الإتقان ١٩٥/٣ .

والتأكيد بـ (إن واللام) من الإطناب بدخول حرف التأكيد على الكلام ويسمى الإطناب بالزيادة .

والفاصلة مناسبة تماماً للمعنى ، فإن ربكم وقد خلق لكم هذه الأنعام التى تحمل أثقالكم ، هو رءوف لأن من رأفته أنه يسر هذه المصالح وسخرها لكم ، وهو رحيم لأنه رحكمكم بخلقها ، فختم بصفتى الرأفة والرحمة .

ومما زاد من بلاغة الفاصلة أنها بصيغة المبالغة (فعول ، فعيل) . وقد تم تأخير الوصف غير الأبلغ عن الأبلغ لأن الرأفة أبلغ من الرحمة، ولمراعاة تقارب الفواصل وتآلفها ، كل ذلك ميز الفاصلة بأسلوب إيقاعى غنى بالموسيقى مملوء بالنغم . وقوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

والكلام فى الآية معطوف على الأنعام ، بمعنى : وخلق هذه الدواب للركوب والزينة ، ولأن هذه المخلوقات أوجدها الله لينتفع بها الإنسان ، فإن فى مقدوره خلق غيرها ، مما لا يعلمون .

والفاصلة موغلة[١] ، توجب حسن الإفهام لأنه لو اكتفى بما ذُكر من دواب لظن السامع أنه لا يوجد غيرها ، أو أن الله لم يخلق سوى ما ذكر ، فيزداد إنكار المنكرين .

لذلك جاءت الفاصلة فيها إطناب وإمعان ، فختمت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها فجاءت الزيادة للاحتراس وللتأكيد على أن قدرة الله فى خلقه فاقت تصورهم ، وتعددت حدود ما يعلمون إلى ما لا يعلمون .

---

(١) الإيغال : وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها . الإتقان ٣/٢٢٠ .

وبعد الحديث عن خلق السموات والأرض والدواب ، وختمه بإخبار الناس أن يخلق ما لا يعلمون ، انتقل إلى بُعد آخر فى معرض حديثه عن الألوهية والخلق فتحدث عن الهداية فيقول تعالى :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١).

والمعنى وعلى الله قاصد السبيل ، فهو الذى يهديه إلى الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع والسبيل : الإسلام .

فإن على الله بيان الطريق الموصل إلى الدين الحق ومع ذلك فإن منكم جائر ، أى : جار ومال عن القصد بسوء اختياره .

فختمت الآية بما يناسب هذا المعنى ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، إذن لو شاء لن يكون هناك جائر ولكن مشيئته أن يترك لكم الاختيار وتحديد السبيل .

ولفظ (أجمعين) فيه إيغال لأن المعنى تم بدونه ، ولكن فيه نكتة وهى التأكيد على الشمول دون استثناء ، بمقدور الله هداية الكل ، ولكن ترك لهم الاختيار ليتحقق التكليف .

وقد ساعد ذكر اللفظ (أجمعين) على استمرار الإيقاع المتوازن فى الآيات لينسجم النغم فى السورة كلها ، مع الإفهام .

فإن تتابع الفواصل المتقاربة ، والمتماثلة يكسب النظم قوة فى التعبير ، وسلاسة فى التركيب .

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ١٤٩/٣ ط دار المعرفةبيروت، توزيع دار المعارف بالرياض.

بعضٌ من أنعم الله :

ثم يعود سبحانه إلى ذكر النعم التى منها إنزال الماء من السماء فيقول تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (سورة النحل : ١٠ – ١٩) .

إن الله أنزل من السماء الماء لفائدتين للشرب ولإنبات الشجر ، وللشجر فائدة هامة هى المراد توضيحها والإخبار بها وهى إرعاء الحيوان، ففى الفاصلة تأخير الفعل (تسيمون) وحقه التقديم على الجار والمجرور (فيه) ولكن جاء التأخير للتأكيد على المقدم ، وفيه معنى التخصيص أيضاً .

وكذلك أفاد التأخير انتظام إيقاع الفاصلة مع أخواتها فى الآيات ، وفيها – أيضاً – التمكين التام المناسب لما قبلها ، لبيان فائـــدة النبـــات للحيوان .

ثم تأتى الآيات الثلاث التالية استمراراً فى تعديد نعـــم الله علــــى الإنسان وفيها دعوة للتفكير ، والتعقل ، والتذكر ، يقول تعالى فيها :

﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِـــن كُـــلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَـــارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـــاتٍ لِّقَـــوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِـــكَ لآيَـــةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

يمكن ملاحظة كيف جاءت الفواصل الثلاث فى التركيب وفى المد بالواو مع النون :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

وقد سمى الشيخ شمس الدين الصائغ مثل هذه الفواصل : " مراعاة مناسبة فى الفاصلة لاختصاص كل من المشتركين بموضع [1] .

---

(١) الإتقان ٢٩٨ ، وراجع شرح السيوطى للآيات الثلاث ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، والشوكانى فى فتح القدير ١٥٢ .

ويلاحظ أن قوله تعالى فى الآية الأولى ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الـــزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ ... ﴾ فيها تضمين لأن قوله تعالى (شجر فيه تسيمون) متعلق بقوله (ينبت لكم الزرع) .

وجاءت (آيات) فى فاصلة الآية الثانية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـــاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ بالجمع لأن الله ذكر عدد من النعم التى سخرها للإنسان أما فيما عدا ذلك فقد ذكر فى كل آية من الآيتين نعمة واحدة .

وقد ختمت الفواصل بثلاثة أفعال (يتفكرون ، يعقلون ، يذّكرون) وسبقت الفواصل بجمل خبرية من الضرب الإنكارى ، على نمط واحد من التركيب ، ولكل فاصلة مناسبة مقنعة ودالة على المعنى .

ففى الآية الأولى : يذكر النعم المترتبة على إنزال الماء من إنبات للزرع وهو أنواع مختلفة ذكر منها (الزيتون والنخيل والأعناب ومـــن كل الثمرات) التى هى طعام للإنسان .

لذلك ناسب أن يكون التفكر نابع من ملاحظة هذه النعم .

فإن أصحاب العقول الراجحة دائمة التفكير فى خلق الله ونعمه الكثيرة.

أما الآية الثانية : فقد ذكر فيها من النعم (تسخير الليل والنهـــار والشمس والقمر والنجوم) وتكرار (مسخرات) للتأكيد .

وهذه النعم تحتاج لمن يعقل الأمور ويدرك أنها نعم مسخرة بأمر الله لمنفعة البشر .

كما سخر الشجر[1] لإطعام الحيوان ، فمن " يدرك حكمـــة ذلـــك التدبير فى هذا الوجود ، وهذا التناسق فى هذا الكـــون ؟ يـــدرك ذلـــك

---

(١) يقصد بالشجر : النبات الذى ترعى فيه الماشية .

صاحب العقل السليم ، لذلك ختمت الآية بقوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) [١] .

وفى الآية الثالثة : ينبه الله سبحانه الإنسان إلى ما أودعه فى الأرض من معادن تنفعه فى قوله (وما ذرأ لكم فى الأرض) .

فإن حياة الإنسان قائمة على تلك الزخائر المدخرة فى باطن الأرض فحق عليه أن يتذكر باستمرار المنعم ، " فمن الذى ينسى أن هذه القدرة هى التى حفظت مثل هذه الكنوز ؟ ولذلك عُقبت الآية بالفاصلة (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) [٢] .

وتكرار ما قبل الفاصلةِ زيادةٌ فى التوكيد على أن هؤلاءِ القوم المخصوصين بالتفكير والتعقل والتذكر، وفيها حث على التأمل والتفكر، ولا يتأمل أو يتفكر أو يعقل إلا صاحب العقل السليم .

يقول العقاد : " القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به ، والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ، ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة " [٣] .

ثم يقول : " ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ، ويستخرج منه بواطنه وأسراره ، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه ... وفريضة التفكير فى القرآن تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من

---

(١) الفاصلة القرآنية : د. عبد الفتاح لاشين، ص٨٢ دار المريخ، الرياض١٤٠٢/١٩٨٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) التفكير فريضة إسلامية للعقاد ، ص ٥ ، م العصرية بيروت . صيدا .

هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان " [١] .

وفى الفواصل الثلاث السابقة إفادة التمكين ، أو ما يسمى بالائتلاف لأن ما جاء فى الآيات قبلها تمهيد لها ، فتعلق معناها بمعنى الكلام تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت ، ينقص المعنى ، ولا تتحقق الفائدة المرجوة من ذكر النعم .

والمتأمل فى الفواصل يلحظ هذا الانسجام فى الإيقاع ، الذى تأتى من جمال النسق ، وحسن النظم وطلاوته " فإن الفاصلة القرآنية ، ترد وهى تحمل شحنتين فىآن واحد ، شحنة من الوقع الموسيقى ، وشحنة من المعنى المتمم للآية " [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ ، ٧ .
(٢) البناء الصوتى فى البيان القرآنى : د. محمد حسن شرشر ، ط ١ دار الطباعة المحمدية ، ١٩٨٨ القاهرة .

منافع الإنسان من أنعم الله :

تستمر الآيات بعد ذلك فى ذكر النعم التى تتصل بمنافع الإنسان فيقول الله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (سورة النحل : ١٤ – ١٩) .

فإنه " لما ذكر تعالى الاستدلال بما ذرأ فى الأرض، وذكر ما امتن به من تسخير البحر ، ومعنى تسخيره كونه يتمكن الناس من الانتفاع به للركوب فى المصالح وللغوص فى استخراج ما فيه وللاصطياد لما فيه ... وبدأ أولاً من منافعه بما هو الأهم وهو الأكل ... ثم ثنى بما يتزين به وهو الحلية .. وفيه منافع غير اللبس .. ثم ذكر نعمة تصرف الفلك فيه ماخرة أى : شاقة فيه ، أو ذات صوت لشق الماء " [١] .

والإلتفات فى " وترى " حيث " أسند الرؤية إلى المخاطب المفرد، وجعلها جملة معترضة التعليلين ، تعليل لاستخراج وتعليل الابتغاء ، ثم جاءت الفاصلة " لعلكم تشكرون " على ما منحكم من هذه النعم " [٢] .

---

(١) البحر المحيط٥/٤٦٥ .

(٢) المرجع السابق ٥/٤٦٦ .

فجاءت وقد تمكنت من موضعها ودلت على الفائدة المرجوة من ذكرها فإنه على الناس بعد معرفة كل هذه النعم الشكر وواضح تآلف الفاصلة مع ما قبلها وتكامل الإيقاع بها . ومجيئها فعلاً مضارعاً لإفادة الاستمرارية ومواصلة الشكر . وذكر (لعل) بمعنى أن تكونوا عند ظن ربكم وتعلمون واجب الشكر له .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

ويذكر أبو حيان[1] أن (ألقى) بمعنى (جعل) والواقع أنه لا ترادف فى اللغة ، وأن الجعل ليس كالإلقاء ، فإن المعنى فى (ألقى) أكثر قوة وتثبيتاً من (جعل) وختم الآية بقوله " لعلكم تهتدون " بالسبل إلى مقاصدكم ، بالنظر فى دلالة هذه المصنوعات على صانعها ، فهو من الهداية إلى الحق ودين الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

فنلاحظ تعلق الآية بما قبلها فتعطف عليها فى قوله: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ حيث تكرر فعل الفاصلة .

ولكن فى الأولى جاء خبر لعل جملة فعلية ، فالمراد إما أن يكون اهتداء معنوياً لعظمة الخالق وقدرته أو اهتداءً حقيقياً إلى السبيل أو الطريق فى أسفاركم .

وفى الثانية جاء الفعل خبر للمسند إليه الضمير وأفاد الاختصاص لوجود ضمير الفصل (هم) .

---

(١) المرجع السابق ٤٦٦/٥ .

و(العلامات) هى معالم الطرق التى يهتدون بها كمـــا يهتـــدون بالنجم فى سفرهم ليلاً ، وتكرار الفاصلة تمكين لها وزيادة فـــى تـــآلف الكلام وانسجامه .

ولا يخفى ما لفعل الهداية من حث وإرشاد إلي مزيد من التأمـــل والتفكر ليكون الاهتداء إلى المنعم عن طريق الوسائل التـــى ســـخرها للاهتداء فى الأرض .

ثم تأتى الآية التالية بقـــوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُـــقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ لتؤكد الفاصلة ضرورة التذكر بعد كل هذه النعم التـــى منحها الله للبشر لمتعـــتهم وراحـــتهم وتســـهيل الوصـــول لمقاصـــدهم ومعايشهم .

والاستفهام إنكارى تقريرى ، وقد جاءت الفاصلة للتنبيه وإيقـــاظ الغفلان ، خشية النيسان بعد كل ما ذكرته الآيات من دلائـــل واضـــحة على الخالق القادر .

فناسبه صرف الوصف فى خاتمتها إليه سبحانه ليتفق مع أوصافه السابقة فى هذا السياق، ويقترن بنعمه الكثيرة التى لا يمنعها عن الناس، ولا يحاسبهم على تقصيرهم نحوها [١] .

وتظل الفاصلة سؤالاً بلا إجابة لأنه سؤال بغرض التوبيخ .

فبعد أن أثبتت الآيات أن على الإنسان واجـــب التفكـــر والتعقـــل والتذكر ، لعله يشكر ربه الذى يهديه ، ويســـخر لـــه الكـــون لخدمتـــه

---

(١) انظر : البرهان فى علوم القرآن ٨٦/١ .

والعناية به . كما نلحظ كيف سبقت بالمطابقة بالسلب فى (يخلق وما لا يخلق) كنوع من التوبيخ والتأنيب .

فبعد كل ما ذكر من نعم ودلائل فإنه من الجحود اللجوء لغير الله وإشراك غير الله معه .

لذلك جاءت الفاصلة للتنبيه وفيها معنى التقريع والتوبيخ لهـؤلاء المشركين الذين يغلقون عقولهم وقلوبهم .

فإن تذكر نعم الله فى مخلوقاته الدالة على وجـوده ووحدانيتـه ، أعظم شاهد يستدلون به ، والمداومة على التذكر واجبة لكى لا ينسـى الإنسان مدبر هذا الكون ، ولا يجعل غير الله مثل الله .

ففى الآية مشاكلة إذ جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها ، فأنكر الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ وبذلك اتضح التباين بين من يخلق وبين من لا يخلق ، ومثل ذلك لا تقع فيـه الغفلة لذلك تأتى الفاصلة كما تبين (أفلا تذكرون) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّـهِ لاَ تُحْصُـوهَا إِنَّ اللَّـهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

الفاصلة مع ما قبلها وبعدها من المتقارب لأن حرف الميم أقـرب إلى النون لذلك لا نلحظ تنافراً فى الفواصل أو اضطراباً وإنما نجد تآلفاً وانسجاماً وضرورة فالفاصلة فيها تمكين إذ يبدو بوضوح هذا الانسجام والترتيب المعجز فى المعانى إذ جاءت الآية بعد أن " فرغ مـن تعـدد الآيات التى هى بالنسبة إلى المكلفين نعم قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ

لاَ تُحْصُوهَا ﴾ " (١) يريد النعم، " لا نعمة واحدة لأنـه ينتفـى العـد والإحصاء فى الواحدة " (٢)، فإنكم أيها الناس إذا أدركتم ذلك بعقـولكم فلن يسعكم إلا شكر الله على نعمه ، فإن غفلتم عن شكره فإنه " كثيـر المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه " (٣) .

و" ما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذى لا يلتبس علـى إنسـان مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته " (٤) .

وجاءت الفاصلة كمثيلاتها فى القرآن بالكثير من المبالغـة علـى وزن (فعول – فعيل) .

والفاصلة متممة للمعنى لأن الكلام قبلها تم ، ثم أراد الله سـبحانه وتعالى أن ينبه الناس إلى أنه يتجاوز عن تقصيرهم فى شكره ، وأنه لن يقطع هذه النعم عنهم إذا فرطوا فى ذلك ، ولن يعجل لهم بالعقوبة على كفران نعمه .

ويمكن ملاحظة وضع الظاهر موضع المضـمر فـى (إن الله) لزيادة التأكيد على قدرته وحده على الغفران والرحمة وتوقف العلمـاء عند هذه الفاصلة مقارنة بالفاصلة القرآنية فى قولـه تعـالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(٥) أى لظلوم لأنه ترك الشكر وكفر للنعم .

---

(١) فتح القدير ١٥٤/٣ .
(٢) البحر المحيط ٤٦٨/٥ .
(٣) فتح القدير ١٥٤/٣ .
(٤) المرجع السابق ١٥٤/٣ .
(٥) سورة إبراهيم : آية ٣٤ .

واختلاف الفاصلة فى الآيتين رغم اتحاد الكلام السابق عليها ذكره صاحب البرهان نقلاً عن القاضى ناصر الدين بن المنير ، فيعلل ذلــك بأمرين :

الأول : كأنه سبحانه يقول : " إذا حصلت الــنعم الكثيــرة فأنــت آخذها وأنا معطيها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : كونك ظلومـــاً ، وكونك كفاراً ، ولى عند إعطائها وصفان ، وهما : أنى غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفرانى وكفرك برحمتى فلا أقابل تقصيرك إلا بـــالتوقير ، ولا أجازى جفاك إلى بالوفاء .

والثانى : " أن سياق الآية فى سورة إبراهيم فى وصف الإنســـان وما جُبل عليه من التنكير للخير ، والبطر على النعمة ، ولذلك ناســب ذكر هذه الخاتمة ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ عقب أوصافه[1] .

وأما آية النحل فسيقت فى وصف الله تعالى ، وإثبات ألوهيتــه ، وتحقيق صفاته ولهذا ناسب ذكر هذه الخاتمة ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ ، والجملتان خبريتان من الضرب الإنكار لزيادة التأكيد والتقرير .

ويتضح مناسبة الفاصلة القرآنية لما قبلها ، ما جاء فى آيــة (٧) من السورة ، حين قال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُــوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقد أضاف (رب) لضمير المخاطب للتدليل على أنه هو ربهم القائم على رعايتهم وتوفير ما ينفعكم ويزيل المشقة عنكم .

فناسب ذلك أن تكون الفاصلة ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أمـــا الآية (١٨) فى سياق الحديث عن النعم والغفران لمن غفل عن شــكره

---

(١) انظر البرهان ٨٦/١، والإتقان ٣٠٦/٣ والفاصلة القرآنية: د. عبد الفتاح لاشين، ص١٥٠.

تعالى هنا ناسب أن تكون الفاصلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُــورٌ رَّحِــيمٌ ﴾ لطفــاً بالإنسان وإيذاناً فى التجاوز عنه .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

ففى الآية تضمين معنى الوعيد للناس ، فإن الله سبحانه يريــد أن يؤكد لهم إنه مطلع على جميع أعمالهم ما يسرون منها ومــا يعلنــون والتنبيه على نفى هذه الصفة عن آلهتهم .

فجاءت الفاصلة مقابلة لما قبلها فى المعنى، ومعروف أن المطابقة ومجئ الجملتين فعليتين متضادين واتصالهما بالواو والنون للازدواج قد زاد من تآلف الإيقاع وانسجام الكلام ، وتماثل الفواصل .

نفى الخلق عن غير الله :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ * قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٠ – ٢٧).

وفى الآية الأولى ما يُسمى رد العجز على الصدر فقد ذكر فى الآية قوله (لا يخلقون) ، ثم جاءت الفاصلة (وهو يخلقون) فجانس بينهما مما زاد من جمال التناغم الصوتى بتكرار الفعل مثبتاً مرة ومنفياً مرة أخرى كما أن فى الفاصلة تصدير[١] لأن المعنى فى الآية يستلزم أن تكون الفاصلة (وهم يخلقون) ، فإنهم ما داموا (لا يخلُقون) فإنهم مخلوقون ، فنزعت الآية منهم القدرة على الخلق ، وردت لصاحب الخلق القادر على ذلك وهو الله سبحانه .

---

(١) التصدير : هو أن تكون تلك اللفظة – فى الفاصلة – بعينها تقدمت فى أول الآية ، وتسمى أيضاً رد العجز على الصدر . الإتقان ٣٠٩/٣ .

وواضح ما فى الفاصلة من إطناب تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام المخلوقة التى لا تقوى على الخلق .

فإنه لما نفى الله عن آلهة الكفار القدرة على الخلق ، أوجب ذلك أن يذكرهم بأنهم يُخلقون لينبه على خطأهم ، ويذكرهم بأنه لابد من وجود خالق لهم .

أو إنما يريد أن يبين لهم أن هذه الآلهة لا تَخلِق بل إنها تُخلَق ، " فأثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال[١] فإن قوله (وهم يُخلَقون) مخالف لمقتضى حال عبادتهم لها لأن المعبود لا يكون مخلوقاً فهم ينكرون مخلوقيتها ، أو الأصل أن ينكروا ذلك فوجب توكيد أنهم يُخلقون " [٢] .

إذن جاءت الفاصلة مكملة ومتممة للمعنى وزاد من وقعها الحسن المطابقة بين الفعلين .

فى قوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وتأتى الآية التالية متعلقة بالفاصلة التى سبقتها ، والواقع أن الآية تؤكد أن الضمير فى (وهم يُخلقون) للكفار وليس للأصنام كما جاء فى بعض التفاسير .

فإن السياق يدل على أن قوله (أموات غير أحياء) يعود على الكفار لأن مصيرهم يكون الموت ولن يحيوا الحياة الأبدية وأنهم لا يدرون متى يبعثون .

---

(١) فتح القدير ، ١٥٦/٧ .

(٢) خصائص التراكيب ، ص ١٧٣ .

فيكون الضمير فى جميع الأفعال عائد على الكفار ، ويكون قوله (وهم يخلقون) فيه التفات للتنبيه والمناظرة بين حالين ، حال العاجز عن الخلق وحال المخلوق الذى لابد له من خالق .. وقد يكون الضمير فى (يُخلقَون) للأصنام ، وأن قوله (وما يشعرون أيان يبعثون) للكفار فى قوله ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

ومعلوم أن الآلهة تصنع على أيدى الكفار ولا تخلق ، فالكافر لا يقول خلقت إلهاً وإنما يقول صنعته وشكلته .

وفى الفاصلة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ إيغال لأن المعنى يتم بدونها ، وقد ناسبت المعنى للدلالة على أن الحياة والموت والبعث مما يعلمه الله وحده .

وقد لوحظ أن ، ظرف الزمان (أيان) يأتى دائماً فى مقام الحديث عن البعث والموت والحياة .

أما قول بعضهم إن الضمير فى (يشعرون) للآلهة ، وفى (يبعثون) للكفار بمعنى أن هذه الأصنام لا تشعر أيان يبعث الكفار ، على طريق التهم ، فإنه محتمل أن يفسر المعنى هكذا .

وتظل الضمائر فى هاتين الآيتين محل تفسير تقبل العديد من الاحتمالات .

لذلك جاء – بعد ذلك – قوله تعالى : ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وفى الفاصلة (إيطاء) لأن اللفظ الأخير متكـرر فـى الآيتـين والفاصلة فى الآية الثانية متعلقة بالمعنى فى الآية الأولى لأن القلـوب المنكرة مستكبرة .

لذلك جاءت الفاصلة (وهم مستكبرون) صفة لحال المنكـرين ، وجاءت الفاصلة الثانية (أنه لا يحب المستكبرين) تهديد ووعيد لهـؤلاء المنكرين المستكبرين .

ويتناسب المعنى فى الآيات ويترابط وتتآلف الفواصـل وتنسـجم فيصدر عنها إيقاع بديع يتوافق مع السياق .

فإنه لما انتهى بالفاصلة التى تشير إلى قدرة الله فى تحديـد يـوم البعث ، وما سبق من دلائل قدرته وألوهيته وبطلان أن تكون الإلهيـة لغيره ، تأتى الآية لتثبيت وترسيخ العقيدة الإسلامية ، فـإن الإلهيـة لله الواحد الخالق .

ولأن الذين أشركوا لا يؤمنون بالآخرة رغم إعلامهم ووعظهم فلا ينفعهم لأن قلوبهم منكرة .

ناسب ذلك أن تأتى الفاصلة فى وصف سـبب إنكـارهم ، وهـو استكبارهم عن قبول الحق ، لأن عدم التصديق بالجزاء فـى الآخـرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث ، فهم مسـتكبرون عـن الإيمـان برسول الله .

وقوله (لا جرم) كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً : أى حقاً أن الله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون لأنه الخالق وهو أعلم بخلقه فجـاءت الآية تأكيداً لما سبق وأخبر به من أنه سبحانه وتعالى (يعلم ما يسرون وما يعلنون) وفيه تكرار للوعيد .

وتأتى الفاصلة (إنه لا يحب المستكبرين) بإضمار لفظ الجلالة ، لأنه سبق ذكره فى سياق الآية ولقصد التعظيم . أى لا يحب المستكبرين من الكافرين والمؤمنين ، والفاصلة مناسبة تماماً ومستقرة فى مكانها ، فإن الله الذى يعلم ما يسر العبد وما يخفى سواء كان ضالاً أو مهتدياً لا يحب المستكبرين المتعاظمين على الحق .

فالفاصلة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم ، وفيها إيغال لأن الكلام تم وجاءت الفاصلة بما يؤكد أن الله قاطع فى عدم حبه للمستكبرين أيـاً كان مسلكهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

ففى الآية الأولى جاءت الفاصلة (أساطير الأولين) من رد الكفار المنكرين المستكبرين .

فإن (أساطير) بالرفع بمعنى : إن ما تدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين ، أو على النصب بمعنى : أنزل أساطير على سبيل التهكم والسخرية وإن كانوا لا يؤمنون بذلك ، ولكن التصديق بالإنزال ينافى أساطير ، وهم يعتقدون أنه ما نزل شئ .

فجاءت الفاصلة مناسبة للسياق ، مبنية على تآلف الفواصل وانسجامها ، بالإضافة إلى كونها أفادت تمام المعنى وتوضيحه فإن (أساطير) لفظ نكرة احتاج إلى تعريف لبيان نوعها وصفتها .

ويمكن ملاحظة الإيجاز بالحذف والمعنى : قالوا أنزل أساطير الأولين ، والحذف أفاد فى انسجام الموسيقى الداخلية فى تركيب الآية .

أما فى الآية التالية فقد جاءت موضحة لعقوبة هؤلاء الكفار الذين أنكروا وأشركوا ، أنهم سوف يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة .

فاللام فى (ليحملوا) إما لام تعليل ، فإن قولهم وافتراءهم علـــى الله لكى يحملوا أوزارهم أو لام العاقبة بمعنى أنهم لم يقصدوا بقـــولهم (أساطير الأولين) أن يحملوا الأوزار ، ولكن قـــولهم المســـبب لحمـــل الأوزار عن غير قصد ، وقد تكون لام الأمر بمعنى : الحـــتم علـــيهم والصغار الموجب لهم .

والمعنى أن هؤلاء المشركين يحملون أوزارهم ويحملـــون مـــن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، تفيد التصدير لأن الفاصـــلة تقـــدمت بلفظها فى أول الآية .

ويمكن إفادتها التوشيح لأن أول الكلام استلزم أن تختم الفاصـــلة بقوله (ما يزرون) .

كذلك فيها إيغال لأن الكلام تم بدونها ، وما ذكـــرت الفاصـــلة إلا ليخبرهم الله تعالى عن سوء ما يتحملونه للآخرة ، وجاء الفعل (ساء) بالماضى على اعتبار ما سيكون أى التعبير بالماضى عما سوف يحدث فى المستقبل .

إذاً يتبين من الآيات كيف أن الفاصلة تأتى فى مكانها تؤدى دورها فى المعنى وفى انسجام الإيقاع المتأتى من التماثل والتوافق بعضها مع بعض .

فإن القارئ لسورة النحل يعتقد – عند أول قراءة لها – أن السورة تجمع آيات تحكى موضوعات متفرقة لا ترتبط ببعضها البعض .

فإذا ما تجولنا بين معانيها ودققنا فى فواصلها لاحظنا أن السورة مرتبة ترتيباً معجزاً وأن هناك رابطة معنوية تربط آياتها ، وأن الفاصلة تأتى مناسبة لما قبلها ، ولا يوجد تناقض بين أول الآية وخاتمتها .

فكلما أمعنا النظر تراءى مدى التلاؤم والانسجام والتآلف بين الآيات وبعضها وبين الآيات وفواصلها .

جزاء من مكر وكفر :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل : ٢٠ – ٢٧).

إن من كفر من الأمم المتقدمة ومكر ونزلت فيه عقوبة من الله فجعل هلاكهم فى بنيانهم من القواعد وآتاهم العذاب .

جاءت فاصلة الآية الأولى بعد أن تم الكلام فى قوله تعالى (وأتاهم العذاب) وجمال القيد فى قوله (من فوقهم) [1] .

وما جاء فى قوله (من حيث لا يشعرون) من إيغال فى الفاصلة لنكته وهى وصف حالهم حين جاءهم العذاب ، للتأكيد على أن مجئ العذاب غير معلوم وقته أو اتجاهه ، فى وقت لا يكونون فيه منتظرين له أو متوقعين حدوثه .

وقوله (خر عليهم السقف) يمكن أن يكون تعبيراً مجازياً بمعى (أحبطو فى أعمالهم) .

وجاءت الفاصلة تهديداً ووعيداً ليستبعد الكافر مظنته النجاة والأمان وفى ذلك استهزاء وتهكم .

فالكلام تم بقوله (وآتاهم العذاب) ثم أوغل لتتميم المعنى بذكر عدم شعورهم فهم جميعاً لا يشعرون ، على اعتبار أن الضمير يعود عليهم ، أو أن يعود على الكفار .

---

(١) راجع جمال القيد فى قوله تعالى (من فوقهم) . خصائص التراكيب ، ص ٢٥٤ .

والله سبحانه وتعالى بهذه الآيات يتوعد من أشرك به ، أنه سوف يخزيه ويهينُهُ كل الإهانة سواء بالفعل أو بالقول بالتقريع والتوبيخ .

وتأتى الفاصلة موشحة إذ أن السياق فى الآية يستلزم أن تكُون خاتمة الفاصلة (الكافرين) .

من البين ملاحظة تآخى النغم فى الآيات وتلاقى المعانى فإن كل آية عالقة بالمعنى قبلها ، والألفاظ متجانسة ، فالفاصلة فى السورة لها مزية هامة ترتبط بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحداراً ، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيداً لها كما ترتبط بالإيقاع المتناغم بين جميع الفواصل .

ففى الآيات السابقة يلاحظ أن سياق الآية يشير إلى الفاصلة ، إشارة لفظية جلية أو معنوية واضحة كما يتبين -أيضاً- من الآيات بعدها.

مصير الكافر ومصير المؤمن .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٢٨ - ٣٢) .

ففى الآية الأولى تضمين لأن الكلام متعلق بالفاصلة فى الآية السابقة ﴿ إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ .

فتكمل الآية وصف هؤلاء الكافرين ، إن الملائكة تتوفاهم أى تقبض أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمى أنفسهم بالكفر والإشراك بالله، فما كان منهم إلا أن استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم فى الدنيا من العناد والمكابرة ، والكلام تعبير بالحاضر عن المستقبل .

يدافع الكفار عن أنفسهم بأنهم ينكرون عمل السوء وتأتى الفاصلة متمكنة فى الآية مستقرة لتؤكد لهم أن إنكاركم عمل السوء لن يفيد ولن يصدق ، لأن الله عليم بما كانوا يعملون .

فيأتى خبر إن (عليم) صيغة مبالغة للتأكيد على أنه عالم علم اليقين و(الفاء) فى الآية التالية إما للترتيب والتعقيب بمعنى : إذا كان

الله عليم بما كنتم تعملون فلن تنفعكم المغالطة فى الحق ، ويترتب على ذلك ويعقبه دخولكم النار .

أو أن تكون الفاء مستأنفة لمعنى آخر وهو أن جزاءكم ومضيركم النار وتدخلونا بعملكم .

وجاءت الفاصلة ممكنة لمعنى الأية مستقرة فى محلها منها ، (فلبئس مثوى المتكبرين) ، و (فلبئس) السلام للتوكيد ، أى فلبئس المثوى نار جهنم خالدين فيها بسبب تكبرهم .

ووصف التكبر دليل على استقاقهم النار ، وفى ذلك إشارة إلى الفاصلتين فيما سبق من الآيات (قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) (إن الله لا يحب المستكبرين) .

لاحظ هذا الترتيب المتجانس المتلائم ، ففى الآية الأولى وصف الله تعالى الكفار بأن حالهم حال المستكبرين فقصر الاستكبار عليهم بطريق الواو وضمير الفصل .

ثم أكد أنه لا يحب المستكبرين بعامة لا فرق بين مستكبر كافر ومؤمن ، فالله لا يحبهم جميعاً ، وجاءت الفاصلة الثالثة لتوضيح مصير هؤلاء المستكبرين ، وأن مثواهم النار يدخلونها بأفعالم السيئة ، من إنكار وإشراك وكفر بأنعم الله .

هكذا فإن " الجملة القرآنية قد كونت من كلمات قد اختيرت ، ثم نسقت فى سلك من النظام بديع ، فيه حسن تنسيق ودقة ترتيب وإحكام فى تلاؤم " (١) .

---

(١) قبس من البيان القرآنى: د. محمد حسن شرشر، ص١٠٧ ط ١ دار الطباعة المحمدية ١٩٨٣/١٤٠٣ ، القاهرة .

يتضح من ذلك كيف تكاملت الفواصل وتآلفت وتناسب أولها مع آخرها فى ترتيب منطقى، وتسلسل معنوى لا اضطراب فيه ولا مغايرة، بل انسجام وتوافق .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

والحق أنه كلما أمعنَ الباحث النظر فى آيات السورة وتدارسها ، دُهش ، وانتشى من هذا التناسق المعجز وهذا التآلف البديع بين الآيات التى قد يظن لأول وهلة أنها معانى متفرقة .

فإذا أطرق مستمعاً تلاوته وجد هذا الانسجام فى الكلمات بين المعنى والإيقاع الذى يخلب القلوب ويؤانس النفوس .

فإنه بعد أن علم الكفار مثواهم نتيجة تكبرهم على الله ، انتقل إلى مخاطبة الذين اتقوا بالبناء للمجهول (وقيل) وبسؤالهم عما أنـزل الله أجابوا (خيراً للذين أحسنوا) ، والخطاب فيه إيجاز بالحذف بمعنى : قالوا نزل خيرا وهو إشارة إلى خطاب الكفار الذين ردوا بأن الله أنزل (أساطير الأولين) .

فى الآيتين تناظر بين قول الكفار وقول المتقين ، وتأتى الفاصلة متمكنة مستقرة فى الآية لأنه أراد سبحانه وتعالى أن يؤكد أن الدار الآخرة للمتقين ستكون نعم الدار فإنه لما ذكر فى الآية السابقة حال الكفار فى الدنيا والآخرة، كما ذكر حال المؤمنين – أيضاً – فى الدارين.

وجاءت الفاصلة (ولنعم دار المتين) حيث حذف منها المخصص بالمدح أى (ولنعم دار المتقين جنات عدن) والمحذوف لتقـدم ذكـره ولأنه لو ذكر لاختلفت الفاصلة ، واضطرب الإيقـاع ، والأوقـع فيـه الحذف لدلالة السياق عليه ، ولتظل الآية التالية عالقة بـالأولى بهـذا التضمين .

وتختم الآية بالفاصلة (كذلك يجزى الله المتقين) بعد أن مُهِّد لها قبلها لتأتى ممكنة فى مكانها مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ولا قلقة، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً .

ففيها إشارة إلى أن الجنة بما فيها من نعيم لا تكـون إلا جـزاءً للمتقين .

وتتجانس الفاصلة مع السابقة عليها (ولنعم دار المتقين) ويلحظ القارئ هذا التناغم العجيب والإيقاع المتوازن العـذب الرقيـق وهـذا الترغيب المذهل للمؤمنين ، للتواصل مع الله .

والتمسك بتقوى الله فى الأقوال والأفعال ، جزاءه دار النعيم يـوم القيامة ، ومكافئةً للمتقين الذين وصفهم الله بأنهم طيبين .

وترتبط الآية الثالثة وتتعلق بالفاصلة السابقة لها ، (الذين تتوفاهم الملائكة) هم المتقين .

وفى الآية تناظر وإشارة إلىأن الملائكة تتـوخى جميـع البشـر كافرين ومؤمنين ، فالكافرون تتوفاهم الملائكة وهم (ظالمو أنفسهم) .

والمتقون تتوفاهم الملائكة وهم (طيبين) " أى سهلة فإن وفـاتهم لا صعوبة فيها ولا ألم بخلاف ما يقبض روح الكافر والمخلط ، وقيل :

طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله تعالى ، وقيل : زاكية أفعالهم وأقــوالهم وقيل صالحين ، وقال الزمخشرى : طاهرين من ظلم أنفســهم بــالكفر والمعاصى ، لأنه فى مقابلة (ظالمى أنفسهم) [١] .

وتأتى الفاصلة ضمن خطاب الملائكة للمتقين (ادخلوا الجنة بمــا كنتم تعملون) لتتقابل مع الفاصلة فيما سبق عن الكافرين حــين قــال تعالى (إن الله عليم بما كنتم تعملون) فالعملان مختلفان .

فالمتقون طيبون يدخلون الجنة بأعمالم الصــالحة ، والكــافرون يخلدون فى نار جهنم بأعمالهم الصالحة ، إذ كل إنسان يدخل إما الجنة أو النار بعمله .

إن هذا التناظر فى المعنيين يزيد من روعــة وجمــال الإيقــاع المتناغم بين الآيات ويجعل الآيات سلسلة مترابطة متواصلة متــآزرة ، يشد بعضها بعضاً .

فإن المتأمل فى آى الله يتواصل فكره ويتنبه عقله ولا يشرد ذهنه عن متابعة معانى الكلم المعجز .

فإن ترتيب الجمل وتتابع الأفكار ، مع انسجام الألفاظ وترابطهــا هو ما اتصفت به آيات السورة ، يقول الرافعى : " أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم ، فهى كيفما أدرتها وكيفما تأملتها ، وأيــن اعترضــتها ، مــن مصادرها أو مواردها ، ومن أى جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها فى نفسك ما دون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ، والانسجام العــذب ،

---

(١) البحر المحيط ٤٧٦/٥ والكشاف للزمخشرى ٦٠٣/٢ ، دار الكتاب العربى .

وتراها تتساير إلى غاية واحدة ، وتسنح فى معرض واحد ، ولا يمنعها اختلاف حروفها ، وتباين معانيها ، وتعدد مواقعهـــا ، مـــن أن تكـــون جوهراً واحداً فى الطبع والعقل ، وفى الماء والرونق " [١] .

ونلاحظ توغل الفاصلة فىالمعنى لأنه قد تم عند (ادخلوا الجنة) وجاءت الزيادة تفيد أن دخولكم الجنة بسبب أعمالكم الصالحة .

وفى ذلك ترغيب للمؤمنين أن يزدادوا فى تقـــواهم ويحرصـــــوا على رضى الله وطاعته ، فى حين جاءت فى سياق الـــــكفار وعيـــداً وتهديداً لهم بأن الله عليم بما كانوا يعملون ، وسوف يجـــــازون علـــى سوء عملهم .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ٣٧٣ ، المطبعـــة التجاريـــة ، ط ٧ ١٣٨١ هـــ/١٩٦١م القاهرة .

الوعيد والتهديد للكافرين :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَـذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُـونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِءُونَ ﴾ (النحل : ٣٣ – ٣٤) .

وبين هاتين الآيتين وما قبلهما مناسبة قوية وهى " إنه تعالى لمـا ذكر طعن الكفار فى القرآن بقولهم : أساطير الأولين أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم ، ثم توعد مَنْ وصف القرآن بالخيرية ، بين أن أولئك الكفرة لا يرتدعون عن حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد أو أمر الله بعذاب بالاستئصال " [١] .

نلحظ العلاقة الوثيقة بين الفاصلة فى قوله (ولكن كانوا أنفسـهم يظلمون) وبين ما ذكر قبلها فى أثناء الآية (وما ظلمهم الله) وهو من التصدير ، فقد أشار سياق الآية إشارة لفظية جلية للفاصلة .

ويتضح بجلاء أن لفظ (يظلمون) لو أنه غير مـذكور لـذكره السامع دون جهد فى استجلابه ، بمعنى أن الله (ما ظلمهم) وهى جملة اعتراضية ، ولكن ظَلَمَهم سوء عملهم .

و(الفاء) فى الآية التالية تفيد الترتيب والتعقيب ، بمعنـى أنهـم عندما ظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم وإنكارهم (أصـابهم) والفعـل معطوف على (وما ظلمهم) أى أصابهم جزاء سيئات ما عملوا .

---

(١) البحر المحيط ٤٧٥/٥ .

وقيل (فأصابهم) معطوف على فعل الذين من قبلهم ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله ، يتضح من ذلك التضمين ، وهو تعلق الآية بالفاصلة قبلها .

والفاصلة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) من تأخير ما حقه التقديم ولكن نظراً لتوافق الفواصل وتماثلها قدم الجار والمجرور (به) والتقديم لم يكن لضرورة الفاصلة فقط وإنما لفائدة بلاغية وهى الاهتمام بالمقدم والتأكيد عليه ، أى العذاب الذى كانوا به يستهزءون .

وفى الفاصلة توشيح ، لأن ما قبل الفاصلة يحمل دلالة معنوية عليها .

فإن العذاب الذى أصابهم وحاق بهم نتيجة ما كانوا به يستهزءون حين سئلوا عما أنزل الله فقالوا (أساطير الأولين) فإن (به) متعلق بردهم الذى يحمل معنى الاستهزاء والتهكم .

من أصناف شرك الكفار ودعوة الرسل :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (النحل : ٣٥ – ٣٧) .

فعن الآية الأولى قال الزمخشرى : " هذا من جملة ما عدد من أصناف كفرهم وعنادهم ، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله ، استهزاءً منهم به وتكذيبهم الرسول ، وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق " .

والكفار يرون أنهم ما حرموا أو أحلوا إلا بمشيئة الله ولو أراد الله غير ذلك لتحققت مشيئته ، فيرد عليهم فيلاحَظُ الإطناب فى قولهم (ما عبدنا من دونه شئ .. ولا حرمنا من دونه من شئ) بأنه كذلك فعل الذين من قبلهم ، وتختم الآية بجملة قصر تختتم بالفاصلة فى قوله (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) و (المبين) صفة للبلاغ .

ولما كان دور الرسل التبليغ وبوضوح بما شرعه الله لهم من شرائعه التى أساسها التوحيد ، وترك الشرك ، و (هل) تفيد النفى .

فقد جاءت الفاصلة بأسلوب قوى لتأكيد دور الرسل وأن الله برئ من أفعال المشركين ، وأن ما يفعلونه بإرادتهم لم يجبرهم أحد على

الشرك فإنهم ساروا على عقيدة مَنْ قبلَهم الذين خالفوا هـم - أيضـاً - الرسل ولم يستمعوا إليهم .

وقد بدا أن الفاصلة ممكنة في مقرها من الآية ، فأثَّرت في نسـق الكلام ، واعتدال المقطع .

وقد تناسبت الأطراف في الآيات وتماثلت الحروف ، مما يـريح السامع ، ويشد انتباهه .

فالجواب مثبت في الفاصلة ، بمعنى أن الرسول ليس عليه سـوى التبليغ الواضح .

فالتبليغ مهمة الرسول وليست مهمته أن يجبر أحداً أو يفرض عليه وحدانية الله إلا إذا أراد ، لذلك قال الله لرسوله الكريم : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[1] .

إذاً ما يقوله الكفار ويتحججون به من مشيئة الله فـيهم ، ليسـت بحجة لأن الله لن يغصب عليهم ليعبدوه .

وتأتي الآية التالية تزيد الأمر وضوحاً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ، بأن تعبدوا الله وتتركوا كل عبادة تدعو لغير الله مما يحرضكم عليها الشيطان .

فمنهم من هدى الله ومنهم من أضله ، لعنـاده وإنكاره ، فـإن الله لا يهدي من يضل ، لذلك حقت عليه الضلالة بما عمل .

فطابق بين (من هدى الله .. وحقت عليه الضـلالة) وجـاءت ممكنة ، وكأن ما سبق في الآية تمهيد لها ، فقيل في آخرها (فـانظروا

---

(١) سورة القصص : ٥٦ .

كيف كان عاقبة المكذبين) تأمل كيف أتت مستقرة مكملة للمعنى وفيها معنى الوعيد .

وقد تعلق معنى الفاصلة بمعنى الكلام ، بحيث لو طرحت يكــون المعنى ناقصاً .

والفاصلة فى الآية التالية (وما لهم من ناصرين) تأكيد على أن هؤلاء عاقبتهم النار ولن يجدوا من ينصرهم فإن معنى أن الله لا يهدى من يضل ولذلك لن يجدوا ناصرهم أو يرشدهم ويوجههم أو لا ناصــر يوم القيامة يدافع عنهم ويدفع عنهم العذاب .

عناد الكفار والطعن فى الرسل :

قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاًّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ (النحل : ٣٨-٣٩).

(وأقسموا بالله) معطوف على (وقال الذين أشركوا) (آية ٣٥) فالمشركون بعنادهم وبقولهم المعلق بالمشيئة والطعن فى الرسل ، (أقسموا بالله جهد أيمانهم) .

وبذلك تذكر الآية صفة أخرى من صفاتهم وهى إنكارهم البعث مقسمين عليه، فردّ الله عليهم بقوله (بلى وعداً عليه حقا) أى بلى يبعثهم.

وتأتى الفاصلة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ممكنة مستقرة فى مكانها من الآية ، لأن معناها متعلق بمعنى الكلام ، أى أن الله وعد بالبعث بعد الموت ، وأن الوفاء بهذا الموعد حق قد قطعه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنهم يبعثون .

وتأتى الآية التالية متعلقة بالفعل المقدر بعد (بلى) أى : نبعثهم ليبين لهم .

والضمير فى (لهم) قد يفيد الاشتمال كفار ومؤمنين ، ولكن الأبين أنه يعود على الكفار بدليل قوله ليبين لهم أن الذى اختلفوا فيه هو الحق وأنهم كانوا كاذبين فيما اعتقدوا من جعل الآية مع الله ، وإنكار النبوات وإنكار البعث والحساب والعقاب .

وجاءت الفاصلة موشحة لأن معنى الآية يشير إلى الفاصلة قبل قراءتها ، فإن الذى يختلفون فيه إشارة إلى كذبهم ، وإمعاناً فى المبالغة جاء خبر كان (كاذبين) اسم فاعل على وزن (فاعلين) .

قدرة الله ونفاذ أمره :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل : ٤٠ – ٤٢) .

وهكذا تنتقل الآيات للحديث عن قدرة الله فى خلقه ونفاذ أمره إذا أراد شيئاً يقول (كن فيكون) .

وقوله (إنما قولنا) جملة مستأنفة ، تؤكد قدرة الله ونفاذ أمره ، فإنه لما تقدم إنكارهم البعث ، أوضح أنه تعالى متى تعلقت إرادته بوجود شئ أوجده .

فإن الفعل فى خاتمة الآية يشير إليه المعنى ولا يحتاج إلى جهد فى معرفته فإن الله سبحانه إذا قال لشئ كن فلابد أن يكون ، لذلك فهى من الفواصل الممكنة المستقرة ، التى وردت جواباً للشرط .

وقد أدت الفاصلة دورها فى إبراز جمال الإيقاع والنغم الصادر من تكرار الفعل ، كذلك زاد تركيب الكلام جمالاً الإيقاع المتناغم ، فكأن الجمل بالآية فى ترابطها وتلاحمها جملة واحدة .

ويمكن ملاحظة كيف جاء أسلوب القصر (بإنما) ليدل على إرادة الله النافذة كأمر معلوم .

إذن فإن أسلوب القصر والشرط من مؤكدات الكلام ومجئ الفاصلة جواباً للشرط بالفعل المضارع المتصل بالفاء لتفيد الترتيب

والتعقيب والمسبوق بفعل الأمر الذى يفيد التسخير ، كل ذلك خدم المعنى وأكده بقوة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ينتقل الكلام فى الآية السابقة للحديث عن المهاجرين فى الله أى فى دينه ، من بعد ما ظُلموا وأُهينوا وعُذبوا ، فإن الله سوف ينزلهم فى الدنيا منزلة حسنة مكافأة لصبرهم وجهادهم مع الكفار .

وفى (لنبؤنهم) معنى القسم تأكيداً لعظيم قدرهم وأن الله أعد لهم مُنزلاً حسناً ، كى يقوى بهم الإسلام .

ويتحول الكلام فى الفاصلة (لو كانوا يعلمون) ليدل على الكفار، ونلحظ فيها الإيغال لأن المعنى فى الآية قد تم عن المهاجرين .

ثم جاء الالتفات فى الفاصلة كنوع من التأنيب والتقريع .

كما أن أسلوب الشرط المحذوف الجواب جاء للفت الانتباه أيضاً للتفكير فى الجواب المحذوف أى : لو كانوا يعلموا ما للمهاجرين من ثواب عظيم .

وقيل الضمير فى (كانوا) عائد على المؤمنين أى لو رأوا ثواب الآخرة لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا .

وعدم العلم قد أقره الله فى الآية (٣٨) حين قال : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلم الناس من الكفار البعث وكذلك لا يعلمون الجزاء الأوفى الذى سيناله المهاجرون فى الآخرة .

وعدم العلم فى الآية الأولى من صفات الكفار وعدم العلم لا يعنى أنهم لم يخبروا بالبعث وإنما هم علموا فأنكروا .

ولكن فى الآية الثانية هم يجهلــون علـــى الحقيقـــة مـــا ســـيناله المهاجرون من مثوبة ولو علموا وآمنوا لأسلموا .

ومن دقة النظم القرآنى التمييز بين معانى الكلمات ... ولذلك تجد التفرقة فى الاستعمال بين (يعلمـــون) و (يشـــعرون فى الآية ٤٥) " ففى الأمور التى ترجع إلى العقــل وحــده أمر الفصل فيها تجد كلمة (يعلمون) صاحبة الحق فى التعبير عنها ، أما الأمور التـــى يكـــون للحواس مدخل فى شأنها فكلمة (يشعرون) أولى بها " [1] .

وفى (الذين صبروا) هم المهاجرون ، الكلام مستأنف ، لو كانت الفاصلة فى الآية السابقة (لو كانوا يعلمون) للكفار ، فيكون قد حــدث قطع واستئناف ، أما إذا كانت عائدة على المؤمنين ، ففى الكلام تعلـــق بالفاصلة قبله مما يسمى التضمين .

ولتكون الفاصلة (وعلى ربهم يتوكلون) ممكنة فى الآية وفيهـــا إطناب ، لكن من يصبر فإنه يكون متوكلاً على الله .

فلنتأمل كيف جاء الفعل مؤخراً على الجار والمجرور (المعمول) للاهتمام بالمقدم وتعظيمه لأنه لفظ الجلالة ولكى تتناسب الفاصلة مـــع أخواتها فى الآيات السابقة واللاحقة .

---

(١) قبس من البيان القرآنى ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

زعم قريش ورد المولى :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إلاَّ رجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّـيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْـثُ لاَ يَشْـعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَـنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُـم مِّـن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل : ٤٣ – ٥٠).

تأمل كيف بدأت الآية بأسلوب قصر بـــ (ما ، وإلا) لإفادة حكم مجهول ، وقوله : (وما أرسلنا من قبلك) إلتفات الخطاب للرسول ﷺ.

" هذه الآية رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجلُّ مـــن أن يرسل رسولاً من البشر ، فرد الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل إلا رجالاً من البشر يوحى إليهم .

ولما كان كفار مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل صرف الخطاب إليهم .

وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب فقال : فاسألوا أيها المشركون مؤمنى أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون " [1] .

---

(١) فتح القدير ١٦٤/٣ .

جاءت الفاصلة ضمن جملة الشرط المحذوفة الجواب والتقـدير : إن كنتم لا تعلمون فاسألوا ، وحذف جواب الشرط من الفاصلة كثير فى القرآن ، وفى الغالب يحذف لدلالة السياق عليه ، أو لإتاحـة الفرصـة للعقل للتفكير فى المحذوف وتقديره .

فذكر جواب الشرط يكون تكراراً وعبثاً لا طائل من ورائه ، فى كثير من المواقف والحذف دائماً فى مثل ذلك يعمل على تنشيط ذهـن المتلقى ، وإثارة انتباهه ، ولمراعاة التماثل فى الفواصل .

فإن الدقة فى الذكر أو الحذف من سمات اللغة الربانية المعجزة ، " وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم ، مما يسهل على اللسان ويعذب علـى الآذان ، تأتى معبرة موحية ، مصورة للمعنى خير تصـوير ومؤديـة الغرض خير أداء ، لها مقصد خاص ، لا يصلح مرادفهـا لأن تُحـل محلها ، ولم يرد مرور الزمن إلا حفظاً لإشراقها ، وسـياجاً لجلالهـا وبهائها " [١] .

واختلف فى تعلق (بالبينات والزبر) وأقرب الآراء لسياق المعنى ، أن يتعلق بـ (نوحى إليهم) أى وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نـوحى إليهم بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر .

ففى الكلام تقديم وتأخير ، فجعل لإنزال الذكر سبباً وهو (لتبـين للناس ما نُزل إليهم) فى هذا القرآن من الأحكام الشرعية ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد .

كل ذلك (لعلهم يتفكرون) فجاءت الفاصلة مسـبوقة برجـاء أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم والرجاء هنا ليس على حقيقته وإنمـا يعنـى :

---

(١) قبس من البيان القرآنى ، ص ٨٥ .

إرادة أن يصغوا إلى كلام الله ، ويتأملوا ويعملوا تفكيرهم فيتعظوا ، ويسترشدوا .

والفاصلة جاءت متمكنة ، تتعلق بمضمون الآية قبلها فإن نزول القرآن للبيان يستوجب أن يتفكروا ويتأملوا فيما نزله الله على رسولهم ، أى لتعلقها بالشرائع والأحكام التى تحتاج لعمل الفكر والتأمل ، لتنبيه الغافلين .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وتحذير لمن على شاكلتهم .

وبمعنى هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ، واحتالوا لقتله فى دار الندوة ، أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب أى فى حال أمنهم واستقرارهم ، والكلام مستأنف .

وجاءت الفاصلة (من حيث لا يشعرون) ممكنة ومتممة للمعنى داخلة فى مضمون الآية .

فالله سبحانه يريد أن يحذر هؤلاء الكفار من أنهم لا يأمنون من العقوبة ، فقد ينالون العقاب من حيث لا يشعرون فى حال غفلتهم عنه كما فعل بالأقوام السابقين .

و (من حيث لا يشعرون) فيه معنى المباغتة ، والمفاجأة غير المتوقعة أما قوله تعالى : (أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين) فداخلة فى مضمون الآية السابقة .

أى أن الله سبحانه إما أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم بالعذاب أو يأخذهم وهم متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ، أى يهلكهم فى أثناء أسفارهم وسعيهم فى تجارتهم وإنهاء أشغالهم فإنهم علـــى أى حال لا يعجزون الله .

والفاصلة (وما هم بمعجزون) قوية مؤكـــدة بتقـــديم الضـــمير المنفصل (هم) المنفى الذى يفيد القصر للتأكيد أنهم على أى حـــال لا يعجزون الله ، فهو قادر على عقابهم بكل الطرق والوســـائل لمكـــرهم وعملهم السيئات .

فنتأمل كيف وردت الفاصلة متمكنة فى الآية وقد ساهمت فى تمام المعنى ، وجاءت على أسلوب يتناسب مع الفواصـــل وبأســـلوب أبلـــغ وأقوى وأكثر تأكيداً من أن يقول : لا يعجزون الله ، فإن قوله (فما هم بمعجزين) فيه قوة ودليل قدرة .

وتأتى الآية التالية ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤٧) .

وقوله(على تخوف) خلاف قوله(من حيث لا يشعرون)، فالمقصود بالتخوف أن يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب ، قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد [١].

ومناسبة الفاصلة هنا (فإن ربكم لرءوف رحيم) هى أن الأخـــذ على تخوف وترقب شديد ، لذلك فإن ربكم لا يعاجل ، بل يمهل ، رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقكم العقوبة والعذاب .

---

(١) صفوة التفاسير : محمد على الصابونى ، دار تارشيد . سوريا ، حلب ١٢٨ .

ولنتأمل الفواصل فى الآيات السابقة مرة أخرى ، من أول قولـــه (أفأمن الذين مكروا) .

الأولى : أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب (من حيث لايشعرون).

الثانية : أو يأخذهم فى تقلبهم (فما هم بمعجزين) .

الثالثة : أو يأخذهم على تخوف (فإن ربكم لرءوف رحيم) .

ففى الأولى : ناسبت الفاصلة المعنـــى ، لأن خســـف الأرض أو إتيان العذاب يكون مباغة وعلى غير المتوقع لذلك ناسبه (من حيث لا يشعرون) .

أما الثانية : فإن أخذهم فى تقلبهم أى فى جميـــع حـــالاتهم وهـــم مسافرون وهم يتاجرون وغير ذلك لا يعجز الله فهو قادر على أخـــذهم فى جميع تقلباتهم .

أما الثالثة : فإن أخذهم على تخوف وهم مترقبين مـــا يمكـــن أن يحدث لهم أمر صعب ، فشديد على النفس ترقب الهلاك ، لذلك ناســـب ذلك أن تكون الفاصلة (إن ربكم لرءوف رحيم) بإضافة الضمير إلى لفظ الجلالة للدلالة على ربوبيته .

ومجئ (رءوف رحيم) صيغة مبالغة على وزن (فعول ، وفعيل) وقد سبق ذكرها فى موضع آخر من الصورة ، فإن الله سبحانه يـــرأف بهم فلا يعاجلهم ورحيم بهم فيمهلهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَـــيْءٍ يَتَفَيَّـــأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ .

والرؤية هنا رؤية القلب بمعنى الاعتبار عند رؤية الأنعم بالعين ، أى أولم يعتبر هؤلاء الكافرون وعند رؤية آيات خلق الله فى الكون وما يدل على قدرته ، والاستفهام فى (أولم يروا) للإنكار كما يفيد التوبيخ والتعجب والضمير يعود على (الذين مكروا السيئات) .

والمعنى : أن الظلال منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها لـــه من التفيؤ ، والأجرام فى أنفسها داخرة أيضاً – صاغرة منقادة لأفعـــال الله فيها لا تمتنع .

ثم تأتى الفاصلة (وهم داخرون) حال من الضمير فى (سجدوا) بمعنى وهم خاضعون صاغرون وحال ثانياً من (الظلال) ، والعامـــل فى الحالين (تتفيؤ)، ولما كان سجود الظلال فى غاية الظهور بُدِّئ به.

إذاً جاءت الفاصلة فيها تمكين على هيئة جملـــة حـــال مربوطـــة (بالواو وضمير الفصل) ، وجاء (داخرون) اسم فاعـــل ، ومناســـبتها للآية أنها بيان للحال أى أن كل شئ خلقه الله يسجد له خاضعاً صاغراً اعترافاً بقدرته ، ورضوخاً لمشيئته تعالى .

فإذا كانت كل هذه الأشياء منقادة لقدرته وتدبيره فكيـــف يتعـــالى ويتكبر على طاعته الكافرون .

ولما كان سجود (الظلال) فى غاية الظهور بُدِّئ به ، ثم انتقـــل إلى سجود ما فى السموات والأرض ، وكذلك كل دابـــة تـــدب علـــى الأرض ، والملائكة – أيضاً – كلهم يسجدون .

وقيل : " بين تعالى فى آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة لله وبين أن أشرف الموجودات وهم الملائكة ، وأخسها وهى الدواب منقـــادة

له تعالى ، وذلك على أن الجميـــع منقـــاد لله تعـــالى " [1] .

ويأتى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّـمَوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

فالفاصلة (وهم لا يستكبرون) دل على أن جميع مخلوقـات الله من العقلاء وغير العقلاء منقادون لله ساجدون له .

والسجود يعنى الخضوع لذلك ناسب أن تأتى الفاصـلة بمعنـى : أنهم لا يستكبرون فربطت الفاصلة أيضاً بالواو وضمير الفصل لبيـان حال هذه المخلوقات أمام قدرة الله .

فالفاصلة مناسبة لقوله (داخرون) ، لأن الخضوع يعنـى عـدم الاستكبار .

ثم يقول : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

وفى الآية تضمين لأنها متعلقة بالفاصلة قبلهـا ، أى أن هـؤلاء المخلوقات لا تستكبر عن عبادة الله والسجود له فهم يخـافون جلالـه وعظمته ، ولا يتوقفون عن الامتثال لأوامره .

فجاءت الفاصلة (ما يؤمرون) ببناء الفعل للمجهول، وجاءت ممكنة فى موقعها مستقرة لأن خوفهم من ربهم يستوجب الامتثال للأوامر .

---

(١) البحر المحيط ٤٨٣/٥ .

الله واحد لا يشريك له :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ (النحل: ٥١-٦١) .

والآيات نقلة جديدة للحديث عن الشرك ، والإله الواحد ، ومن الملاحظ كثرة الالتفات فى الآيات ، فإنه تعالى لما ذكر انقياد ما فى السموات وما فى الأرض لما يريده تعالى منها ، دل ذلك على أنه هو المتفرد بذلك.

وقد نهى أن يشرك به ، ودل النهى عن اتخاذ إلهين عن النهى عن اتخاذ آلهة ، ولما كان الاسم الموضوع للإفراد والتثنية قد يُتَجَوز فيه ، فَيُراد به الجنس . وأكد الموضوع لهما بالوصف فقيل : إلهين اثنين ، وقيل : إله واحد " (١) . فإنه لا يحسن القول : " إلهين فقط أو إله فقط " وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية " (٢) .

ففى ذكر لفظ الفاصلة (اثنين) إطنابا بغرض التأكيد لرفع الإيهام(٣) .

ولأن المخاطبين هم المشركون ، وقد أكد لهم الله سبحانه وتعالى أن لهم إله واحد فقد جاءت الفاصلة بأسلوب الوعيد والتهديد ونقل الخطاب من الغيبة إلى التكلم بالالتفات لزيادة الانتباه ولكى يكون الأمر مباشراً فى قوله (فإياى فارهبون) أى : ارهبونى أنا وليس غيرى مما تشركون ، بدلاً من قوله (إياه فارهبوا) لأن الالتفات أبلغ فى الرهبة من تقديم المعمول على العامل .

مما يدل على قوة مناسبة الفاصلة للمعنى قبلها وتمكنها ، فإن السياق يستدعيها والموقف يتطلبها . فجاءت جملة القصر بتأخير الفعل وتقديم(٤) ضمير الفصل ، فساعد ذلك على توافق الفاصلة مع مثيلاتها فى السورة .

---

(١) البحر المحيط ٤٨٥/٥ .
(٢) الكشاف ٦١٠/٢ .
(٣) راجع الاتقان ٢٠٧/٣ .
(٤) إياى : منصوب بفعل مضمر تقديره : فارهبوا إياى فارهبون ، ذهول عن القاعدة فى النحو أنه إذا كان المفعول ضميراً منفصلاً والفعل متعدياً إلى واحد هو الضمير وجب تأخير الفعل ، كقوله تعالى : (إياك نعبد) ولا يجوز أن يتقدم إلا فى ضرورة . البحر المحيط ٤٨٥/٥ .

ولأن مبنى الفاصلة فى السورة على الوقف بسكون النون ، فقد حذفت (ياء المتكلم) ، لأن الغرض المجانسة بين القرائن والمزاوجة فاقتضت رعاية الفاصلة الحذف والوقف ، لتتوافق المقاطع ، وتتناسب الفواصل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

وفى الآية التفات مرة أخرى من ضمير التكلم إلى الغيبة ، ليخبر الله تعالى الناس بأنه هو الإله الواحد الحقيق بالعبادة وأن ما سواه من مخلوقاته يستوجب عليهم الطاعة والامتثال .

أى له الملك والخلق والعبادة فوجبت الطاعة والانقياد، والواصب: الواجب الثابت الدائم .

وجاءت الفاصلة مسبوقة بهمزة الإنكار والتوبيخ أى : كيف تتقون وتخافون غيره ، وهو الملك والخالق ولا نفع ولا ضرر إلا بيده ؟

وواضح تأخير الفعل (تتقون) بغرض رعاية الفاصلة ولتتوافق المقاطع .

ويستمر ذلك الإيقاع الثابت ، المتلائم ، ويزيد من وقع الفاصلة وجمالها الالتفات بالاستفهام المعطوف على مقدر الذى يثير – أيضاً – التعجب ممن يعلم أن الله هو الواحد الخالق لكل الوجود ، ومع ذلك يشرك مع الله ، ويزداد عناداً وإنكاراً .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾.

وفى الآية خطاب عام للمشركين : إن ما هم فيه من نعمة فمنه .

ويمتن عليهم بكل ما هم متقلبون فيه من النعم فتكـون (مـا) شرطية، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط ، فعلى العاقل ألا يشكر إلا إياه ، ولا يلجأ فى العُسر إلا إليه .

ومع ذلك فإنكم أيها الناس تظلمون أنفسكم ، لأنه إذا مسكم الضر فإليه وحده تلجأون تتوسلون بالدعاء لرفع الضرر عنكم ، فإن المشركين واهمين حين يعتقدون أنه ساعة العسر تنفعهم آلهتهم .

والفاصلة القرآنية فى قوله (إليه تجأرون) - أيضاً - متـأخرة على معمولها (الجار والمجرور) ، والمعنى (تجأرون إليه) ولكـن التقديم أفاد القصر ، من قصر الملجأ على الله وحده .

ولتستمر الفاصلة فى هذا التناسب والتناسق فى سياقها متلائمة مع فواصل النص القرآنى . ولنتأمل بلاغة الفعل (تجـأرون) بمعنـى : ترفعون الصوت بالدعاء والتضرع ، ففيه معنى رفـع الصـوت مـع الاستغاثة والطلب عند الضرورة .

فإن الله هو الملجأ وهو المنقذ وهو المزيل للضرر .

هكذا يتضح أن اختيار اللفظ القرآنى ، له مغـزى بـالاغى ، لا يتحقق بغيره ، فإن فى لفظ (يجأرون) من الإيحاء والتأثير ، ما لا يؤديه أى فعل آخر دال على رفع الصوت ، وفى مثل ذلـك يقـول الـدكتور محمد أبو موسى : " فالفواصل القرآنية فى سور كثيرة يتحـد نغمهـا الصوتى وفى وحدة النغم هذه تأثير يبلغ مداه فى نفس قارئـه وسـامعه ولست أرفض أن يراعى القرآن حق الفاصلة فيبدل فى كلمة أو يضـع

مكانها أخرى لأن هذا ليس أمراً لفظياً هيناً كما فهمه كثير من البلاغيين، وقليل منهم تنبه إلى قيمة الأثر الصوتى أو الأثر الموسيقى فى التـــأثير والإيحاء ، وظل أكثرهم يفهم أن شئون اللفظ لا تعدو أن تكون محسنات سطحية لا تتصل بجوهر البلاغة ، وليس من الخطأ فى الدين ولا فـــى البلاغة أن تقول إن القرآن يهتم بالناحية اللفظية لأنها جزء من أســـلوبه ولأنها من دواعى التأثير وتلك وظيفة القرآن الكبرى " [1] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـــأَرُونَ * ثُـــمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

والآية فيها تضمين لأنها متعلقة بالفاصلة قبلها متممة للمعنى بذكر المتقابلين (المس بالضرر) و(كشف الضرر) فإنه فى حالة كشف الضرر بعد الدعاء والاستغاثة يعودون لعنادهم وشركهم بـــ (إذا) الفجائيـــة ، والفريق: الجماعة من الناس الذين رفع الضر عنهم، يستمرون فى الشرك.

والآية مسوقة ، للتعجب من فعل هؤلاء الذين يشركون بدلاً من أن يشكروا الله لرفعه الضر عنهم . وفى ذلك إشارة إلى جحودهم ومواصلة كفرهم .

والفاصلة فى (إذا فريق منكم بربهم يشـــركون) تقـــدم الجـــار والمجرور (بربهم) على الفعل (يشركون) تواصلاً مع السياق ، ولإفادة التوكيد والتقرير أنهم بعد كشف الضر مازال فريق منهم مشركين .

ثم يقول تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى : د. محمد محمد أبو موسى ، ص ٣٦٩ ، دار الفكر العربى .

فكان من الضرورى بعد ما صدر من المشركين من جحود بـــنعم الله عليهم أن يتوعدهم فأتى بفعل (ليكفروا) إما للتعليل أو الأمر (أى) لكى يكفروا أو بمعنى اكفروا فيخرج الفعل عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو التهديد والوعيد .

ويؤكد الأمر قوله فى أسلوب التفات من الغيبية إلى الخطاب فـــى قوله تعالى (فتمتعوا) فالأمر أيضاً وعيدلهم وتنبيه على أن متعة الحياة زائلة والله يمهلهم .

وقوله (فسوف تعلمون) أى تعلمون عاقبة أمركم وما سوف يحل بكم فى الدنيا وما ينتظركم فى الآخرة .

والفاصلة (تعلمون) ممكنة مستقرة ، تتمم المعنى ، ويتواصل بها إيقاع الفواصل انسجاماً وتآلفاً .

وثم يقول تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَـــا لاَ يَعْلَمُـــونَ نَصِـــيباً مِّمَّـــا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ .

والمعنى أن الكفار يجعلون للأصنام التى هى جمادات لا تنفع ولا تضر والتى لا تعلم شيئاً ، يجعلون لها نصيباً من أموالهم وأرزاقهم التى هى من الله يتقربون بها أى " يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقـــع مـــنهم الجؤار إلى الله سبحانه فى كشف الضر عنهم وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به " [1] .

وتأتى الفاصلة بالالتفات ورجوع ضمير الغيبة إلـــى الخطـــاب ، مسبوقة بالقسم (تالله) إنكم لسوف تسألون عمـــا كنـــتم تفتـــرون ، أى تختلقونه من الكذب على الله سبحانه فى الدنيا .

---

(١) فتح القدير ١٦٩/٣ .

والفاصلة هنا متممة للمعنى بدونها لا يكتمل ، وهى موشــحة لأن جعل نصيب من الرزق لآلهة لا تنفع ولا تضر، افتراء واختلاق للكذب، وفى السؤال تقريع وتوبيخ .

ثم يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾.

قد يظن عدم الترابط فى المعنى بين هذه الآية وما قبلها لكن الواقع أن فى الآية تضمين لأن معنى الآية متعلق فى الفاصلة السابقة (تفترون) لأنه لما ذكر تعالى أنه يسألهم عن افترائهم ذكر أنهم مع اتخاذهم آلهــة نسبوا إلى الله التوالد ، وهو مستحيل .

ونسبوا ذلك إليه فيما لم يرتضوه... ويكرهونه أشد الكراهة " [١]، فيجعلون لله البنات ولهم البنين، فجاءت الفاصلة تفيد الازدواج بين حالين .

وقوله (ما يشتهون) فيه إيجاز بالحذف أى ما يشتهون من البنين ، والمحذوف مفهوم من السياق .

وواضح ما تركته الفاصلة من إيقاع أخاذ وخاصة مــن الازدواج وهذه المقابلة الطريفة .

وكذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَــلَّ وَجْهُــهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

والآية تفسير وتوضيح لقوله (ما يشتهون)، فالمشهور أن البشارة فى الأخبار السارة ، ولكن خبر ولادة الأنثى لم يكن بالخبر السار لذلك يكنى بسواد الوجه عن الانكسار والتغير وما يبدو علــى الوجــه مــن علامات الغم والحزن .

---

(١) البحر المحيط ٤٨٨/٥ .

ثم تأتى جملة الفاصلة (وهو كظيم) حال مربوطة بالواو وضمير الفصل بمعنى : ممتلئ غيظاً وحنقاً ، وقد خالفت الفاصلة فـي هيئتهـا ومع ذلك فإنها متلائمة ومتوافقة مع ما قبلها من فواصل ومـا بعـدها للتقارب فى المخرج بين النون والميم، وورود الميم ساكنة قبلها مد .

و (كظيم) صيغة مبالغة على وزن (فعيل) ، وهو مجاز عقلى والمعنى (وهو مكظوم) من وقوع الفاعل موقع المفعول .

ومناسبة الفاصلة بيِّنةٌ فإنه لما كان مغموماً مسـود الوجـه مـن الحزن ، فقد زادت الفاصلة فى توضيح حاله ، إذ هو ممتلئ غيظاً ولا يصرح بذلك وإنما يكون غيظه ظاهراً على وجهه أى : يكظم غيظـه ، ولكنه يبدو على وجهه التغير .

ويستكمل وصف حال من بُشر بالأنثى فيقول تعالى : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

والآية وصف لحال ذلك المغموم المبشر بالأنثى فبالإضافة إلـى سواد وجهه وكظمه الغيظ ، يتغيب ويختفى عن الناس ، من شدة حزنه وإحساسه بالعار والخجل الذى يلحقه من ولادة الأنثى .

ثم هو متردد بين أمرين : أن يمسك الأنثى ويحتفظ بها على مشقة وهوان وذل ، أم يدفنها فى التراب والقول بالتذكير مع أنه للأنثى .

والفاصلة (ألا ساء ما يحكمون) من التوشيح ، فإن لها علاقـة وثيقة بما تقدم ، فإنها راجعة إلى قوله : (ويجعلون لله البنات) .

أى ساء ما يحكمون ، حين نسبوا لله ما هو مستكره عندهم وهـــى الأنثى ، ونسبوا إليهم الذكر ، أو ألا ساء ما يحكمون من إمساك الأنثى على هوان وذل أو دفنها للتخلص من عارها .

ففى الفاصلة استقباح لسوء فعلهم وحكمهم فى بناتهم ، وواضـــح تآلفها وانسجامها مع السياق ، واستمرار الإيقاع المتناغم بين الفواصل .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّــوْءِ وَلِلَّـــهِ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

يخبر الله سبحانه وتعالى أولئك الذين لا يؤمنـــون بـــالآخرة ولـــم يصدقوا البعث والوحدانية ، ولم يكتفو بل نسبوا لله البنات سفهاً وجهلاً .

يخبرهم الله سبحانه أنهم متصفين بصفة السوء القبيحة التى هـــى كالمثل فى القبح ، فالنقص إنما ينسب إليهم لا إلى الله .

إن لله المثل الأعلى أى الوصف العالى الشأن والكمال المطلـــق ، لذلك جاءت الفاصلة مناسبة تماماً لهذا المعنى فى قوله (وهو العزيـــز الحكيم) بصيغة المبالغة على وزن (فعيل) فإن الله تعالى وصف ذاته العلية بالعزة والحكمة لأنه العزيز فى ملكه ، الحكيم فى تدبيره .

فإنه العزيز الذى لا يغالب فلا يضره نسبتهم إليه ما لا يليق به ، والحكيم الذى يمنح من سعته وكرمه ولا يعاجل الكفـــار بالعقوبـــة ولا يؤاخذهم بظلمهم .

فالفاصلة ممكنة فى موضعها من الآية مستقرة غير نافرة لأنهـــا مطابقة للمعنى ملائمة له متعلقة به ، متقاربة مع ما قبلها ، متآلفة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

لما ذكر الله تعالى فى فاصلة الآية السابقة أنه (هو العزيز الحكيم) لأنه أمهل الكفار رغم ما ارتكبوه ولا يعاجلهم بالعقوبة لفضله ورحمته ، ولم يؤاخذهم بظلمهم .

لأنه لو فعل ما ترك على الأرض من دابة ، أى كل مادب عليها .

والظاهر من الآية أنه تعالى يريد عموم الناس ، والمراد بالظلم الكفر أو المعاصى ، والمعنى : ما ترك عليها من مشرك أو عاص ، ولكن يؤخرهم إلى وقت معين تقتضيه الحكمة الإلهية .

وفى الآية توشيح حيث أن صدرها مطمع لعجزها ، أى الفاصلة فإن قوله (يؤخرهم إلى أجل مسمى) يقتضى أن تكون الفاصلة (لا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون) فالأجل المعين له وقت معلوم ، كما أن فيها تمكين فى قوله (لا يستئخرون ساعة) .

يستدعى أن تختم الفاصلة بقوله (ولا يستقدمون) بحذف (ساعة).

لأنها معلومة من السياق ولا فائدة من تكرارها ، وذكرها يؤثر على تآلف الفواصل ويربك الإيقاع .

ولنتأمل المطابقة بين (يستئخرون ، ويستقدمون) وما أضفته من إيقاع متوازن بين الجملتين ، اتفق مع سائر الفواصل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ .

والآية تكرير لقوله (ويجعلون لله البنات) ـــ فالكفار ينسبون لله ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات ، والتكرير للتأكيد والتقرير ولزيادة التوبيخ والتقريع .

وإن من قبائحهم أن هذا الذى تصفه ألسنتهم من الكذب قولهم (أن لهم الحسنى) ، أى : أن لهم مع قبح قولهم – من الله الجزاء الحسن ، هذا من بليغ الكلام وبديعه أى ألسنتهم كاذبة كناية عن نسبة .

فيأتى رد الله تعالى على وصفهم ، أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم وهو النار التى ليس وراء عذابها عذاب .

ولما كان من الكفار من يعتقد أن لهم الحسنى وكان مصيرهم المحتوم فى النار مما تصفه ألسنتهم وهو الكذب ، جاءت الفاصلة متممة للمعنى موضحة جزاءهم الذى هو النار فإنهم (مفرطون) أى معجلون إلى النار ومقدمون وفى معنى آخر : متركون منسيون فيها .

وقرئ (مفرِّطون) بكسر الراء وتشديدها (أى مضيعون أمر الله، فهو من التفريط فى الواجب ، وقُرئ بفتح الراء مخففاً ، أى : مقدمون إلى النار " [1] وفى كل الأحوال جاءت الفاصلة متناسبة ممكنة لأن الكلام قبلها مهد لها ودل عليها .

---

(١) انظر فتح القدير ٣/١٧١ .

عودة إلى النعم بإرسال الرسل :

قال تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٦٣ – ٦٩) .

ففى قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

لما ذكر الله تعالى سفاهة المشركين فى عبادتهم لغير الله ، من أوثان لا تضر ولا تنفع ذكّر ببعض النعم التى منّ الله بها على الناس كافة ، تتحدث الآيات بها وتوضح فضل الله عليهم لعلهم يشكرونه .

يخبر سبحانه وتعالى الرسول بأنه أرسل الرسل إلى الأمم قبل أممه ويقسم على ذلك مؤكداً (بالقسم وقد) على سبيل التسلية والتسرية للرسول ﷺ . ولكن كفار مكة قد زين لهم الشيطان أعمالهم الخبيثة .

فهو وليهم والناصر الذى لن ينصرهم ، لأنه لا ناصر لهـم ، إن الشيطان يُحسِّن أعمالهم القبيحة حتى كذَّبوا الرسل وأنكروا ما جاءوا به من عند الله من البينات ، فهو ناصرهم فبئس الناصر ومصيرهم النار .

والمراد نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجـوه ، لأن الشـيطان لا يمكن أن يتصور منه النصرة ، وإذا كان الناصر منحصراً فيه لـزم أن لا نصرة من غيره .

لذلك وردت الفاصلة (ولهم عذاب أليم) من التوشيح لأن المعنى قبلها يشير إليها ، فإنه مادام الشيطان وليهم فالعذاب الأليم مصـيرهم ، فلو قيل (ولهم) لابد أن يكون (العذاب الأليم) وواضح أن الفاصلة ختمت بصيغة مبالغة (أليم) للدلالة على استمرار الألم وشدته وقوة تأثيره .

كما أوجب السياق تقديم الجار والمجرور (ولهم) للتأكيد علـى أنهم سوف يعذبون عذاباً أليماً ولمراعاة الفاصلة والتـى وردت بـالميم الساكنة قبل المد ليستمر الإيقاع المتآلف والنغم المتتابع .

والميم والنون حروف متقاربة لذلك لا نجد تنافراً أو اضطراباً فى الفاصلة ولكن جاءت لتؤدى دورها فى إبراز المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّـذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فإن المعنى : إن الله ما أهلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة علـى الكفار بالإبداع والبيان فيكون المعنى : وما أنزلنا عليك الكتاب يا محمد إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم فيما اختلفوا فيه من التوحيد وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية .

والفاصلة فى قوله (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)، ونصب (هدى ورحمة) على أنهما مفعول لأجله، فالمنزل هو الله وهو الهادى والراحم.

والفاصلة ممكنة مستقرة فى مكانها متعلقة بالمعنى قبلها فإنه لمّا أنزل القرآن لبيان ما اختلفوا فيه ، أوجب ذلك أن يكون القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون بالله ويصدقون الرسل .

فختم بقوله : (لقوم يؤمنون) أى : يصدقون والتصديق محله القلب ، والفاصلة هنا يمكن استنتاجها من معنى الآية فلا يمكن أن تكون مثلاً (لقوم يكفرون) لأن الله لا يهدى القوم الكافرين .

ففى فواصل سابقة قال تعالى إنه (رؤوف رحيم) لأن المقصود بالرأفة الكفار الذين يرأف بهم لا يعاجلهم بالعقاب ورحيم بهم لأنه يمهلهم فيمنحهم الفرصة للإيمان وترك الشرك .

أما هذه الفاصلة فإن المقصود بالهدى والرحمة القوم المؤمنون .

فنلاحظ مجئ الفاصلة (مصدراً) للتأكيد على أن القرآن هو الهدى والرحمة التى تشمل العبد المؤمن ، وتحيط به ، وتعمه من كل جانب .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

وتعود الآيات إلى ذكر نعم الله – سبحانه – العظام على خلقه لتقرير وتأكيد وحدانيته وقدرته ، فهو الذى أنزل من السماء الماء لإحياء الأرض بعد موتها .

وقد توقف العلماء أمام الفاصلة القرآنية (إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) وأخذوا يوضحون لماذا لم يقل (لقوم يبصرون) إذا كان كل من المطر والنبات يرى بالبصر ، ووُجد أنها مناسبة للمعنى من وجوه ،

وهى إنه : " لما ذكر إنزال الكتاب للتبيين ، كان القرآن حياة الأرواح وشفاء لما فى الصدور من علل العقائد .

ولذلك ختم بقوله : (لقوم يؤمنون) أى : يصدقون ، والتصديق فى القلب ، فكذا إنزال المطر الذى هو حياة الأجسام وسبب لبقائها .

ثم أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن ، كما قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد جمودها ، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل .

وقد ختم بقوله (يسمعون) هذا التشبيه المشار إليه والمعنى: سماع إنصاف وتدبر ، ولملاحظة هذا المعنى – والله أعلم – لم يختم : بـ (لقوم يبصرون) وإن كان إنزال المطر مما يبصر ويشاهد " [١] .

إذاً مناسبة الفاصلة هنا خفية ، لأن الكلام قبلها – ظاهرياً – ليس له علاقة بها ، ولكن مع النظر والتأمل يلاحظ المتلقى أن الآية تشير إلى هؤلاء المنكرين للبعث كالنائمين ، يحتاجون لمن يوقظهم من غفلتهم ليطلعوا على ما لا يستحق إنكاره ، لوضوح الأدلة عليه ، وأدل هذه النعم إنزال المطر من السماء واختلاطه بالأرض فتحيا بعد موتها .

ومن المعلوم أن البعث من السمعيات إذاً المناسبة قائمة بين : السمع والبعث .

فإن سماع العظة والتدبر ينقل الإنسان من حال الغفلة إلى التدبر فلا يتعارض ذلك مع ما ذكر فى الآية ، " فالخاتمة فى الآية اختصت بها آيتها دون ما جاورها من آيات كثيرة تتحدث عن نعم الله عز وجل مثلها ، لأنها وردت فى موضعها توبيخاً لمن أنكر البعث واستبعد الحياة

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٩١ .

الثانية ، كأنه قيل له : إن ذلك قبل التدبر مقرر فى أول العقل حتـــى أن من يسمعه يعترف به " [١] .

فإن كلام الله آية ودليل لقوم قادرين على فهم ما يتضمنه من العبْر. لذلك كان السمع ضرورياً للتدبر وأخذ العظة .

ثم لما ذكر الله تعالى إحياء الأرض بعد موتها ، ذكر ما ينشأ عن المطر ، وهو النبات الذى تحيا به الأنعام وفى ذلك عبرة أخرى لمـــن يعتبر فيقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِـــن بَـــيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ ﴾ .

ومناسبة الفاصلة هنا بينة ، وإن كان فيها إيغال لأن المعنى يـــتم بكلمة سائغاً .

لأنه مفهوم أن يكون سائغاً للشاربين ، للاعتماد على حاسة التذوق فإن ذلك السائل الأبيض الذى يخرج من بين فرث ودم يكـــون ســـائغاً (للشاربين) فختمت الآية بما يزيد المعنى وضوحاً ، ومراعـــاة لنظـــام الفاصلة ، ويمكن ملاحظة أن ذكر الجار والمجرور فى الفاصلة جـــاء لانتظام الفواصل وتواليها فى تناسق وتتابع يتلائم مع الإيقاع العام الذى سار فى جميع فواصل السورة .

وتستمر الآيات فى بيان فوائد النبات ، فإن به تحيا الأنعام وتمنح الناس لبناً سائغاً للشاربين ، كذلك فإن من النبات المثمر ما يتغذى عليه الإنسان فى قوله تعالى :

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الإسكافى، ص٢٦٧، ط ٢ بيروت، لبنان ١٩٧٧.

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

كل ذلك فى مقام الحديث عن النعم العظيمة ، فإن من هذه النعم – أيضاً – أن من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، وفى ذلك عبرة تعتبرونها .

ومناسبة الفاصلة هنا جلية واضحة فهى من الفواصل المتمكنة فى محلها الواضحة الدلالة على المعنى قبلها .

فقد جاءت فى سياق هذا الحديث عن النعم الماثلة أمام الإنسان ففى ذلك آية لمن يستعمل عقله ، ويعمل بما يقتضيه عند النظر فى آيات الله فإنه لا يعتبر إلا زوو العقول .

وهنا ملاحظة دقيقة أنه قُدم اللبن على السكر المستخرج من الثمرات قيل لأن اللبن دليل الفطرة .

كما أن الآية خُتمت بقوله (سائغاً للشاربين) لأن اللبن كان مشروب العرب الأساسى – طوال العام – لذلك لم تدعو الحاجة لأن تختم الآية كما ختمت الآية بعدها .

واللبن قُدم فى القرآن على الخمر والعسل كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[1] .

فإن إخراج اللبن من بين فرث ودم ، وإخراج السكر من الثمرات نعم باهرة تدل على ألوهية الله وقدرته .

---

(١) سورة محمد : آية ١٥ .

وفى النحل آية :

واستكمالاً للنعم التى تخرج من مخلوقات الله – الأنعام والثمرات – فإنه يوجد النحل أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

" إن فى الآيات الكريمة – السابقة – من إحكام تركيب الجمل ، وتأليف الآيات واطرادها على نسق واحد ، مع تنويع ألوان التراكيب ، وارتفاع هذا التركيب إلى المستوى الذى يوازى ما تضمنه من المعانى والفكر ، ما لاعهد للعرب به قبل ذلك " [١] .

نلاحظ ارتباط الآيتين حتى ليصيرا آية واحدة ، فجاءت الفاصلة الأولى (ومما يعرشون) يظن أن فيها إيغال ولكن الحقيقة أنها استيفاء للأقسام ، فإن النحل له ثلاثة أماكن يبنى فيها خليته إما فى الجبال أو الشجر ، أو ما يعرش الإنسان ، فالفاصلة هنا ممكنة استوفت المراد ، واستقر بها المعنى واكتمل ، وفى ذات الوقت هى استمرار للدفق الإيقاعى المترابط والمتآلف .

فإذا حُذفت الفاصلة نَقُص المعنى .

وتأتى الآية التالية (ثم كلى) لأن بعد استقرار النحل يكون البحث عن الرزق ، وأكلها ينتج عنه إخراج عسل لذة للشاربين فيه شفاء فتأتى

---

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن : محمد المبارك ، ص ٤٨ ، ط ٤ دار الفكر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .

الفاصلة (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فى موقعها متمكنة ، ثابتة غير نافرة تؤدى دورها بدقة شديدة لأن أحوال النحل تحتاج لمن يتأمل ويتفكر فى هذه الإدارة العجيبة التى يدير بها النحل حياته .

وكلمة (أوحى) تدل على أن النحل مُسَيَّر بإرادة الله الذى أودعها علماً بذلك وفطنها لتقوم بما تقوم به وهو من الإلهام الغريزى له وهذا أدعى إلى التفكر وإمعان النظر فى صنع الله المعجز .

فإن ما يقوم به النحل من أعمال عجيبة يعجز عنها البشر هى بوحى من الله .

فإذا تَفَكَّر الإنسان فى ذلك كله وتأمل ونظر لا يكون فى وسعه سوى الإيمان بالإله الواحد الخالق والرازق والمهيمن .

يلاحظ المتأمل كيف انتهت الآيات السابقة بالفواصل التى جاءت مختلفة (يسمعون يعقلون ، يتفكرون) [1] .

واتضح أن كل فاصلة وردت مناسبة للمعنى قبلها وبدقة شديدة تدعو المتأمل إلى قول (سبحان الله لا إله إلا الله) .

فالسمع غير إعمال العقل غير التفكير والتدبر ، وقد جاء كل فى موقعه من الآية كما اتضح .

---

(١) انظر درة التنزيل ، ص ٢٦٦ ، والجواهر فى تفسير القرآن للشيخ طنطاوى جوهرى ٣٤/١ ، ط ٢ م الحلبى ١٣٥٠ هـ .

قدرة الخلق فالموت فالبعث :

وبعد أن ذكر الله سبحانه آيات خلقه فى الأنعام والثمرات والنحل وما خصه منها من حديث عن المشروبات المختلفة التى تنفع الإنسان ، انتقل للحديث عن قدرته التامة فى إنشاء الخلق من العدم ثم إماتتهم ثم بعثهم مرة أخرى فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ٧٠ – ٧٤) .

فى الآية الأولى دليل قدرته سبحانه وعلمه الواسع ، إذ يميت الناس بعد حياة ، ومن يتقدم به العمر ويهرم ينتقل من حالة العلم إلى حالة الجهل ، لذلك ختمت الآية بقوله (إن الله عليم قدير) .

فجاءت الفاصلة بصيغة المبالغة (فعيل) زيادة فى التوكيد ودليل الاستمرارية والدوام .

فهو سبحانه دائم العلم الواسع دائم القدرة على تسخير كل شئ لإرادته ، وفى الفاصلة تمكين للمعنى قبلها فإنه سبحانه " لما ذكر ما

يعرض في الهرم من ضعف القوى والقدرة وانتفاء العلم ذكـر علمـه وقدرته اللذين لا يتبدلان ولا يتغيران ولا يدخلهما الحوادث ، ووليـت صفة العلم ما جاورها من انتفاء العلم ، تقدم أيضاً ذكر مناسـبة للخـتم بهذين الصفتي " [1] .

وإنه سبحانه لما ذكر الخلق ثم الإماتة ، وترك البعض حتى الهرم والعجز وتراجع العلم ، ذكر تفاوت الناس فى الرزق ، حتى أن المملوك قد يفوق رزقه ، رزق مالكه ، فى المال والعقل والدين والتصرف .

فما الذين فضـلهم الله به من سعة الرزق على غيـرهم بـرادى رزقهم الذى رزقهم الله إياه على ما ملكت أيمانهم، فالجميع سواء فى الرزق أمام الله ، والكل مسـاوى فى البشرية والمخلوقية ، والكل يرزقه الله .

وقوله (فضل) تبكيت لهم فى جحد نعمة الله .

وتأتى الفاصلة (أفبنعمة الله تجحدون) دقيقة فى مناسبتها لما قبلها، فالاستفهام بالهمزة للتقرير وإنكار جحودهم بل والتعجب من هذا الجحود بالنعمة بعد أن من الله عليهم بها .

فإن من تفضل عليكم بالنشأة أولاً ثم مما فيه قوام حياتكم جـدير بأن تُشكر نعمه لا تُكفر .

وكالمعتاد أخر الفعل (تجحدون) الذى حقـه التقـديم لمراعـاة الفاصلة ولأن ارتباط الهمزة بالمعمول زيادة فـى التقـدير والاهتمـام بالمقدم وإجلالاً لذاته العلية .

لذلك فإن فى تقـديم النعمة دليل على أن جحـودهم مختص بذلك لا يتجاوزه وذلك لقصد المبالغة والتوكيد .

---

(١) البحر المحيط ٤٩٨/٥ .

وتنويع حرف الفاصلة فى (قدير) ثــم (تجحــدون) ، " لــيس للاستمرار فى شكل التغاير ، وتنغم الصوت ، وإنما هــو فــوق تلــك السمات لخدمة المعنى وتقريره " (١) .

هكذا تأتى الفواصل القرآنية " لمقتضيات معنويــة ، مــع نســق الإيقاع بهذه الفواصل ، وائتلاف الجرس لألفاظها التى اقتضتها المعانى، على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء " (٢) .

ولما ذكر سبحانه وتعالى من نعمة الإيجاء من العدم ، ثم الــرزق المفضل فيه ، ذكر من نعمه أن يجعل من أنفسكم أزواجاً هم من جنسكم ونوعكم لتستمر الحياة بالتوالد ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُــم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُــمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

فتأتى الفاصلة تقرر سوء منطق الكفار وإنكار ذلك عليهم ، فــإن إيمانهم بما يعتقدون فيه المنفعة من الأصنام وَهْمٌ باطل ، لا دليل عليه .

أما نعم الله فظاهرة واضحة لمن يعقل ومع ذلك هم يكفرون بها ، وفائدة الفاصلة أنها خطاب إنكار وتقريع لهم ، وتقديم (نعمة الله) مــع ضمير الفصل ، من القصر بمعنى قصر كفرهم على نعم الله .

وكأن كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد فإن الله ينعى عليهم فساد نظرهم فى عبادة ما لا يمكن أن تقع منــه القــدرة على عمل شئ .

(١) النظم القرآنى فى سورة الرعد : محمد بن سعد الدبل ١٨٧ ، بيروت لبنان .
(٢) الإعجاز البيانى للقرآن : د. عائشة عبد الرحمن ، ص ٢٤٩ دار الفكر العربى .

وتكرار الفاصلة على نسق متشـابه فـي الآيتـين (أفبعمـة الله يجحدون) (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) .

ففى الثانية تنبيه على أن جحودهم لنعمة الله ، يقابله إيمان بالباطل وكفر بنعمة الله .

ففى الفاصلتين من حسن التركيب والاطراد على نسق متشـابه ، وارتفاع هذا التركيب إلى المستوى الذى يوازى ما تضمنه من معـانى وأفكار ، وما أحدثه من جرس موسيقى رائق ، ما يبعث النفوس علـى التلذذ بترتيل الآيات وحفظها .

فإن " قارئ القرآن الكريم ، يشعر شعوراً طبيعياً بدافع قوى يدفعه إلى ترتيله ترتيلاً صوتياً ، له نغماته ، فى كل كلمة من كلماته ، بل فى تتابع حروفه ، وحلاوة النغمة فى الكتاب العزيز ، تتخلل الآية فى جميع أجزائهـا وحروفها ، ولا تقتصر على الوقوف عند الفاصلة فى آخـر الآية " [1] .

ثم ينبه الله سبحانه إلى أن ما يعبدونه لا يملك لهم شيئاً ، فيقول :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ .

والآية متعلقة بالاستفهام الإنكارى (أفبالباطل يؤمنون) ، وقولـه فى الفاصلة (ولا يستطيعون) من التوشيح ، لأنها متعلقة بالمعنى (ما لا يملك لهم) لأن الذى لا يملك الرزق يدل على أنه لا يستطيع .

هـكذا تأتى الفاصلة متناسبة تماماً مع المعنى فى الآية ، وتكرار (لا) النافية مع ترتيب الكلمات وختام الآية بالفعل المتصل بالواو والنون.

---

(١) البناء الصوتى ، ص ٥١ .

كل ذلك شارك فى هذا الإيقاع الموسيقى الرخيم، وفيه تأكيد للمعنى وتثبيت للحكم على ما لايملك إعطاء الرزق بعدم القدرة وعدم الاستطاعة.

ولما نفى الله سبحانه عن الأصنام القدرة والإرادة ، قال :

﴿ فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى لا تتخذوا الأصنام آلهة مع الله ، وهو العالم وأنتم لا تعلمون ما ينفعكم وما يضركم ، فوردت الفاصلة مطابقة لما قبلها طباق سلب (الله يعلم وأنتم لا تعلمون) ، ومناسبة الفاصلة واضحة والمعنى أنه تعالى يعلم ما تفعلونه من عبادة غيره والإشراك به .

وعبر عن الجزاء بالعلم ، (وأنتم لا تعلمون) كنه ما أقدمتم عليه ووبال عاقبته ، فعدم علمكم بذلك جرّكم وجرّأكم ، وهو كالتعليل للنهى عن الإشراك ، وفيه معنى التنبيه والتحذير .

ويمكن أن يكون المعنى فلا تضربوا الأمثال لأنه سبحانه وتعالى يعلم خطأ ما تضربون من الأمثال وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه.

فمن الواضح أن الفاصلة فيها تمكين للمعنى وتصحيح للمعتقد (أنهم يعلمون) فضلاً على اتفاق النسق مع الفواصل قبلها .

تعليم الكفار كيف تضرب الأمثال :

ولما قال سبحانه أنه يعلم ومن جملة ما يعلم ضرب الأمثال، وأنهم – أى الكفار – لا يعلمون ، علمهم كيف تضرب الأمثال فى قوله تعالى:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل : ٧٤ – ٧٩) .

يُعلِّمُ الله سبحانه وتعالى الكفار كيف تُضرب الأمثال فى صورتين تشبيهيتين ، فى الأولى يشبههم فى إشراكهم بالله بهيئة من سَوَّى بين عبد ومملوك عاجز عن التصرف ، وبين مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء ، على سبيل التشبيه التمثيلى . ثم يسأل تعالى : هل يستوون .

فالإجابة واضحة ، أنهم لايستوون ، لأنهم يسوون بين عاجز وقادر على كل شئ لذا فالحمد لمن يستحقه وهو الله تعالى دون ما يعبدونه مما لا قدرة لها ولا نفع يرتجى منها .

وتؤكد الفاصلة أن الكفار الذين هذا حـــالهم أكثـــرهم لا يعلمـــون الحق، ونفى العلم عن أكثرهم لأن منهم من بان له الحق بعـــد ظهـــور الحجة ، وحذف متعلق (يعلمون) المعمول ، لأنه مفهوم من السياق أى لا يعلمون الحق .

ولإعمال الفكر فى المحذوف ، وكذلك لأن ذكره يؤثر على سياق الفاصلة ، فلو قيل (أكثرهم لا يعلمـــون الحـــق) لتغيـــرت الفاصـــلة واضطرب السياق وتوترت موسيقى الفاصلة فى الآية .

ويضرب الله مثلاً آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَـــيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَـــن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ومثل آخر يضربه الله لهؤلاء المنكرين ليزيدهم إيضـــاحاً ، فـــى الفرق بين الإله الحق والأصنام الباطلة ، فيشبه المشركين فى عبـــادتهم لغير الله بهيئة رجلين أحدهما أبكم لا ينطق بخير ، ولا يقدر على فعـــل شئ ، وهو ثقيل عالة على وليه ، ضعيف .

هل يستوى هذا مع رجل فصيح يأمر بالعدل ويسير على الصراط المستقيم ، يستنير بنور القرآن ؟

جاءت الفاصلة فى الآية مكملة للمعنى ، لا غنى عنهـــا توضـــح وتصف الصراط ، فيها تمكين تنطق بها الألسن قبـــل ســـماعها ، لأن الصراط لابد وأن يكون مستقيماً ، لما اتُصف به الرجـــل مـــن الأمـــر بالمعروف، وحرف الميم بعد النون فى الفواصل الأخرى من المتقارب.

لذلك لا يشعر القارئ اضطراباً ولا انحرافاً فــى الفاصــلة بــل انسجاماً وتآلفاً ، تطرب له الآذان .

ولأن الله عالم بكل شئ فإنه عالم للغيب ، إذ يقول :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّــاعَةِ إِلاَّ كَلَمْــحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق .

كل ما يغيب من علم فى السموات والأرض عن أهلها يعلمه الله ، ولما كانت الساعة آتية بأمر الله جُعلت من القرب كلمح البصر .

فمن السياق والمعنى يتأكد أن الفاصلة لابد أن تكون (إن الله على كل شئ قدير) قدير لأنه مطل علىالغيب ، وقدير على إتيان الســاعة بأسرع من لمح البصر .

وختمت الفاصلة بصيغة المبالغة (قدير) وجاء رويها الراء من الحروف المتقاربة مع (النون والميم) .

وقد ذكر فى آية سابقة الوصف قدير فى قوله ﴿ إِنَّ اللَّــهَ عَلِــيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (النحل : ٧٠) بزيادة العلم ، لقوله فى الآية قبلها فى وصــف الإنسان عندما يهرم (لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً) .

فجاءت الفاصلة تؤكد بصيغة المبالغة علم الله الواسع وقدرته التى لا حدود لها .

أما قوله (إن الله على كل شئ قدير) فإن القدرة شملت كل شــئ فالغيب له والساعة له ، هو المتصرف ، وهو المدبر للكون كله ، وفى ذلك أعظم دليل على ألوهيته ووحدانيته .

وكما هو واضح ، من تكرار التوكيد بـــ (إن الله) فى كثير من الفواصل القرآنية من اللوازم التى تؤثر تأثيراً كبيراً على إثارة المشاعر وتحفيز النفوس للامتثال ، لأمر الله واتباعه .

إنه الأسلوب القوى المؤكد ، أحياناً يأتى جملة خبرية من الضرب الإنكارى بـــ(إن واللام) وأحياناً يأتى من الضرب الطلبى بـــ (إن) فقط.

وللتفريق بين جهل الكفار وإنكار البعض رغم علمهم – فيكونـــوا فى حكم الجهلاء – ، وبين جهل الأطفال الذين خرجـــوا مـــن بطـــون أمهاتهم لا يعرفون شيئاً يقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فيذكرهم الله تعالى بأعظم نعمة امتن بها علـــيهم وهـــى الســـمع والإبصار والقلوب التى تشعر وتحس، وأن جعلهم يعلمون من بعد جهل.

كل هذه النعم مدعاة لشكره لذلك فالفاصلة (لعلكـــم تشـــكرون) مناسبة للمعنى ، وقد وردت فى مواضع ســـابقة فـــى (الآيـــة ١٤) ، وجاءت – أيضاً – فى موضع ذكر النعم .

ومناسبة الفاصلة ، أن الشكر يأتى بعد عرض النعم فعنـــد ذلـــك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه .

و تأتى (لعل) فى مقام شكر النعم للحث والترغيب والتنبيه على وجوب شكره تعالى .

أى لعلكم بعد كل ما قُدم إليكم من نعم أن تشكروه ، فهـــو وحـــده صاحبها ومؤديها .

ولكى يدلل على قدرته ، بعد ذكر نعمه على الإنسان مـن سـمع ونظر ، يوجه النواظر إلى الطير المسخر فيقول :

﴿ أَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِـكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والآية دليل آخر على كمال قدرته تعالى ، والرؤية هنا من الأدلة التى لا يمكن إنكارها ، فالطير مسخرات بأمر الله الذى هيئها للطيران، فالذى يمسكها فى الهواء عن السقوط الله القادر على كل شئ .

ولأن الآية بدأت باستفهام إنكارى تقريرى مع فعل الرؤية (ألـم يروا) فإن العلم عن طريق الرؤية بالنظر والتأمل لا يكون إلا من القوم المؤمنين ، لأن الكافر الجاحد المنكر يرى ذلك كل يوم ولا يتعظ .

أما من أودع قلبه الإيمان فهو يرى ويتيقن أن تسـخير الطـائر بالجو من آيات الله .

لذلك ختمت الآية بقوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات دلت على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة لقوم يؤمنون بالله وبما جاءت بـه رسـله مـن الشرائع التى شرعها .

وقد سبق ذكر الفاصلة (لقوم يؤمنون) (فى الآية ٦٤) ، عندما خاطب نبيه بأنه أنزل عليه القرآن (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) فـإن الله يعلم أنه يوجد فى خلقه من يرق قلبه عند سماع القرآن فيـؤمن بـه ويهديه عقله عند رؤية أنعم الله فى كل شئ من حوله فيؤمن به .

وكأنه سبحانه وتعالى فى مثل هذه الفواصل يخص المؤمنين لأنهم عرفوا الحق فصدقوه وآمنوا به .

من أحوال الإنسان ونعم الله :

ثم يذكر سبحانه من جملة أحوال الإنسان ، ومن تعديد نعمه عليه قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِينُ ﴾ (النحل : ٨٠ – ٨٢) .

ففى الآية الأولى يبين الله للناس كيف أنه منحهم نعمة السكن فاستخدموا جلود الأنعام فى عمل البيوت ، كما استخدموها أثاثاً ومتاعاً لهم، فجاءت الفاصلة جار ومجرور (إلى حين) أى إلى " أن تقضوا منه أوطاركم ، أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو إلى أن تموتوا " [1] .

فجاءت الفاصلة مكملة للمعنى ، ومراعية للنسق القرآنى . كما أنا تفيد الإيغال لأن فيها زيادة معنى .

وحَسُنَ أن يأتى قبلها لفظ (متاعاً) بعد (أثاثاً) واللفظان من النظائر ، ولكن لفظ (متاع) فيه معنى التمتع بنعمة الله وما يتبعها من راحة .

كما أن مجئ الفاصلة (جار ومجرور) ساهم فى التنويع الصوتى ، والوقت الذى يعطى القارئ فرصة التأمل والتفكر .

---

(١) الكشاف ٦٢٥/٢ .

أما قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ .

فالآية استمرر لعرض النعم التى منها أن الله سبحانه جعل للناس (مما خلق ظلالاً) أى أشجاراً يستظلون بها، ومن الجبال أكنة يستكنون بها وسرابيل تقيهم الحر ، وأخرى تقيهم البأس ليتم نعمته على خلقه .

وتأتى الفاصلة (لعلكم تسلمون) ممكنة فى موضعها ، دالة عليها المعنى أى لعلكم " تنظرون فى نعمه الفائضة فتؤمنوا به وتنقادوا لــه ، وقرئ تسلمون : من السلامة أى تشكرون فتسلمون من العذاب أو تسلم قلوبكم من الشرك ، وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع "[1] .

وكذلك بمعنى : لتخلصوا لله الربوبية وتعلموا أنه هو المنعم وحده.

وعلى كل الأحوال فالفاصلة تأكيد للمعنى قبلها ، وتكرار (لعلكم) فى أكثر من آية سابقة ، يساعد فى إبراز هذا الإيقاع المتناغم المنسجم بين الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ ﴾ .

ففى الآية التفات بالماضى بمعنى: إن أعرضوا عن الإسلام، فإنما أنت يا محمد عملك هو التبليغ فقط ، فلك العذر بعد ذلك إن تولوا عنك ، لأنك أديت ما وجب عليك ، ولست بقادر على خلق الإيمان فى قلوبهم .

---

(١) الكشاف ٦٢٦/٢ .

وتأتى الفاصلة فى أسلوب قصر ، وتختم بالصفة (المبين) أى : اجعل يا محمد بلاغك واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، فــإن أنكــروا فعليهم إنكارهم .

والصفة (المبين) كما أن لها فائدة الإيضاح والدلالة على صــفة البلاغ مما يجعل الكفار لا حجة لهم بعد ذلك ، فإن مجئ اللفــظ علــى هيئته لمراعاة النسق الصوتى لفواصل الآيات لمزيد من التآلف والانسجام.

فيشعر القارئ أن السورة كيان واحد لا يتجزأ ، وبناء متكامــل لا ينفصل .

وتأتى الآية التالية تقريعاً وتوبيخاً بهؤلاء الكفار الــذين يعرفــون نعمة الله ثم ينكرونها ، بعبادة غير الله .

والفاصلة (وأكثرهم الكافرون) أى وأكثرهم يموتون كفاراً ، وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدى للإسلام ، أما أكثرهم ففى الكفر ماضــون ومصرون .

والفاصلة إيغال لأن المعنى تــم بــدونها وإن جــاءت بزيــادة ، فللاحتراز ، من أن يفهم أن جميعهم يموتون على الكفر ، لأن هناك من ينكرون ، ولكن بعد حين يهتدون للإسلام .

نلاحظ انسجام الألفاظ فى الآية وتكرار حرفــى لكــاف والــراء (ينكرونها ، وأكثرهم ، الكافرون) .

ولو أمعنا النظر فى جميع حروف الألفاظ فى السورة لوجدنا ذلك التجانس بتكرار بعض الحروف أو تلائم بعضها مع بعض ، مما يبرز هذا التناسق الصوتى البديع .

الوعد والوعيد للمنكرين :

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُـؤْذَنُ لِلَّـذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَـؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِـدُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَـهِيداً عَلَـى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُشْـرَى لِلْمُسْلِمِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَـنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٨٤ - ٩٠) .

فبعد أن ذكر الله سبحانه نعمه على خلقه وإن منهم مـن أنكرهـا ومنهم من وقر الإيمان قلبه ، أتبع ذلك بأصناف من الوعيد يوم القيامة ، عندما يحشر الخلائق للحساب ، سوف يبعث الله سبحانه فى كل أمة نبيا يكون شهيداً عليهم بالإيمان أو الكفر .

ولن يُقبلُ من المنكرين اعتذار ولن يُطلب مـنهم أن يسترضـوا ربهم، فقد مضى زمن الاعتذار ، وجاء زمن الحساب .

هكذا ختمت الآية بقوله (ولا هم يستعتبون) من تقـديم ضـمير الفصل (هم) للتخصيص ، وجملة (لا يؤذن لهم) فيها إيجاز بالحذف بمعنى : لا يؤذن لهم بالاعتذار .

والحذف أبلغ لدلالة السياق ، وإشعار المنكرين بمدى ما وصـــلوا إليه يوم القيامة من تحقير واستهزاء بهم .

وجاءت الفاصلة متممة للمعنى مؤكدة لما قبلهـــا ، وزيـــادة فـــى المعنى إذ أن الكفار لن يقبل اعتذارهم كما أن الله لن يمنحهم الفرصـــة لاسترضائه .

ولنتأمل تركيب الآية على هذه الهيئة ، وما أدته من تناسق صوتى فإن الحذف وذكر الفعل المبنى للمجهول (يُؤذن) وقبله (ثم) التى تدل على الترتيب والتعقيب وذكر ضمير الفصـــل وتكـــرار (لا) النافيـــة واختيار الفعل المبى للمجهول (يُستعتبون) .

كل ذلك ساعد فى بناء الإيقاع الداخلى المؤثر الذى يحمل الإشارة إلى هؤلاء المتكبرين بأن الله يتوعدهم وأنه لا فرصة يوم القيامة لـــديهم لإنقاذ أنفسهم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا العَذَابَ فَلاَ يُخَفَّـفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

فإن قوله (إذا رأى الذين ظلموا العذاب) ، بمعنى عندما يـــرون العذاب ، فى جهنم فلا يُخفف عنهم ، ولا يؤخرون ولا يمهلون ، فإن الله لن يمهلهم ليتوبوا .

نتأمل تكرار (لا) النافية مع الفعلين (يُخفف) و (يُنظـــرون) وبناء الفعلين للمجهول ، وذكر ضمير الفصل (هم) ، واتفاق فاصـــلة الآية مع سابقتها فى التركيب ، وتآلفها وتماثلها .

فإن قوله (ولا هم ينظرون) فيه زيادة فى المعنى أى حتى ييأس الكافرون من وجود فرصة لأن يخفف عنهم الله أو يمهلهم ، فهم معذبون بكفرهم لا محالة .

هكذا لا يجدون يوم القيامة مخرجاً من العذاب والآية إشارة ثانية تحمل الوعيد والتهديد لمن أنكر وكفر .

وتأتى الآية التالية مبينة للذين أشركوا أن من اختاروهم من دون الله لن ينفعونهم فى ذلك الموقف العظيم فيقول :

وقوله تعالى :﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القَولَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فإنه لما كان العذاب فى جهنم أمراً محتوماً على الكافرين ، رغم اعتقادهم أنه من الممكن التخفيف عنهم ، فإن الكفار سوف ينظرون إلى شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله فى الألوهية .

ففى ذلك إشارة إلى أنهم كانوا مخطئين فى ذلك الالتماس بتخفيف العذاب عنهم .

فتأتى الفاصلة جواباً ورداً على ادعائهم فى قوله (إنكم لكاذبون) ومجئ الفاصلة مؤكدة بـ (إن ، واللام) والمد فى اسم الفاعل (كاذبون).

وكذلك التجانس فى (أشركوا ، شركاءهم ، شركاؤنا) والتجانس بين (ألقو ، والقول) إلى جانب التآلف والترابط الظاهر فى تركيب الآية كل ذلك أتاح انتظام المد الصوتى فى الألفاظ والأفعال .

" ولعل جمال النغمة هو السبب فى العدول فى كثير من الآيـــات عن طرائق التركيب المعتادة إلى صياغة خاصة فى الكلام " [١] .

كما أن بداية الآية بتكرار قوله (إذا رأى الذين) كما فى الآيـــة السابقة ، توكيد على أن ما يبصر بالعين يكون آكد ، وأثبت فى الذاكرة.

كما أن أسلوب الشرط فى الآيتين يزيد المعنى دلالة ، لأن جملـــة الشرط لابد لها من جواب .

وفى ذلك تحفيز للانتباه لهذا الجواب ، وفيه إشارة أيضاً إلى كذب المنكرين على الله ، وأن شركهم لن يفعهم مما يزيـــد غمهـــم وهمهـــم وحسرتهم .

وقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَــنْهُم مَّـــا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

فبما أن شركاءهم أجابوا بأنهم كاذبون ، ممـــا جعلهـــم يعترفـــون بفداحة ما اقترفوه فى حق الله فألقوا السلم : أى استسلموا بعد ظلمهـــم وكفرهم لحكم الله وقضائه بعد الاستكبار والعناد .

وقوله (ضل عنهم) عائد على الآلهة التى عبدوها مـــن دون الله فإنهم يوم القيامة ، يفقدون الأمل الذى اعتمـــدوا عليـــه ، أن تنصـــرهم آلهتهم .

وبَطُل ما كانوا يفترون من أنه لله سبحانه شركاء ، كمـــا بَطُـــل زعمهم أن آلهتهم تشفع لهم .

---

(١) دراسة أدبية لنصوص القرآن : سبق ذكره ، ص ١٥٣ .

لذلك خُتمت الآية بالفاصلة (ضل عنهم ما كانوا يفترون) فإن ما أمَّلوه فى آلهتهم زعم باطل ، استوجب الإشارة إليه ، والتنبيه على أنهم مغلوبون فى النهاية .

وفى ذلك تنبيه لسرعة التلبية وعدم الانتظار بعد أن يكون الأوان قد فات .

وفى التفات بديع يتحدث الله سبحانه عن الكافرين للتأكيد على سوء منقلبهم يوم القيامة فيقول :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

والآية تأكيد لما سبق فى الآيات ، وزيادة وهى أنهم سوف يذوقون عذاباً فوق العذاب لأنهم لم يكتفوا بأن يكفروا ولكن صدوا الناس ومنعوهم من الدخول فى دين الله ، لذلك فعذابهم مضاعف .

جاءت الفاصلة متناسبة تماماً للمعنى فى قوله (بما كانوا يفسدون) لأن فسادهم ظهر فى أمرين : كفرهم عبادة الله وعنادهم واتخاذ غير الله آلهة لهم ، ثم منع الناس عن عبادة الله .

إذاً جاء العذاب بسبب إفسادهم فى الدنيا بالكفر والمعصية . فخُتمت الآية بخبر (كان) الجملة الفعلية (يفسدون) .

والفاصلة من التوشيح لأن فى الآية ما يدل على المعنى فى الفاصلة ، فجاءت مؤكدة للمعنى مثبتة له دالة عليه .

فإن مراعاة تماثل الفواصل لم يمنع أن يكون اللفظ هو المراد والمعبر تعبيراً بالغاً عنه .

فإن " طريقة نظم القرآن ، تجرى على استواء واحد فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها ، وفى التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام ، وباستقصاء أجزاء البيان ، وترتيب طبقاته ، على حسب مواقع الكلمات لا يتفاوت ذلك ولا يختل " (١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

إن يوم القيامة يبعث الله فى كل أمة نبياً منهم يكون شاهداً على من عصى واستكبر ، ثم يخاطب الله سبحانه محمداً ﷺ بأنه جاء شهيداً على كل هؤلاء وفى ذلك إشارة إلى أنه آخر الأنبياء .

وفى جملة مستأنفة يخبره أنه سبحانه نزّل عليه القرآن توضيحاً و(تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) فختمت الفاصلة بمن يستحقون البشرى وهم المسلمون .

ففى الفاصلة إيغال لتمام المعنى بدونها وإنما جاءت لزيادة مستحبة لدى القارئ المسلم أن يعلم أن القرآن هدى ورحمة وبشرى ، له ولكل من أسلم ووحد بالله ، فجعل الجار والمجرور (للمسلمين) متعلقاً بـ (بشرى) ومتعلقاً بـ (هدى ورحمة) من حيث المعنى .

فالفاصلة خاصة بالمسلمين دون غيرهم ، لأنهم المنتفعون بذلك .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى، ص ٢٧٥ تحقيق أ. السيد أحمد صقر، دار المعارف ، ط ٤ القاهرة.

ولو قدم الجار والمجرور(للمسلمين) لكمال المبالغة فىالاختصاص، ما تحقق التوافق والتآلف بين الفواصل .

ولأصبح (القرآن) مقصوراً على الهدى والرحمة والبشرى ، فى حين أن للقرآن صفات أخرى .

ولما ذكر الله سبحانه أنه نزّل الكتاب تبياناً لكل شئ أعقب ذلـــك بآية تجمع أصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَـــنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

أتى بصريح مادة الأمر[1] فى قوله (إن الله يأمر) .

ووردت الفاصلة (لعلكم تذكرون) فيها تمكين ، وتناســب فـــى المعنى مع مراعاة النسق العام للفواصل فإن أصول التكليف تتلخص فى الأمر بالعدل والإحسان .

وإعطاء ذوى الأرحام الحق الذى أوجبه الله على المسلم وينهـــى عن ارتكاب الفواحش والمنكر والبغى فيقابل ثلاثة أوامر بثلاثة نواهى .

ثم جاءت جملة (يعظكم) مستأنفة للدلالة علـــى أن الله ســـبحانه يأمركم بفعل يصلح أحوالكم وينهاكم عما يفسدها .

فهو يؤدبكم بما شرع من أوامر ونواهى لكى تتعظـــوا وتمتثلـــوا لتكاليفه .

---

(١) راجع: الطرق التى سلكها القرآن فى أساليب الأمر، قبس من البيا القرآنى : د. محمد حسن شرشر ، ص ٢١ : ٢٣ ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٣ هــ/١٩٨٣ م القاهرة.

وتختم الآية بالفاصلة (لعلكم تذكرون) أى لعلكم تعون وتتعظون بكلام الله .

وواضح مناسبة الفاصلة لأن التكاليف إذا عرضها الله سبحانه على المسلمين طالباً منهم التنفيذ والامتثال، لأوامره ونواهيه يستوجب ذلك أن يذّكروا ويتعظوا .

الوفاء بعهد الله :

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل : ٩١ – ٩٦) .

ففى الآية الأولى تخصيص لأمر من أوامر الله تعالى التى كلف بها المسلم فى الآية السابقة ، ذلك الأمر هو : الوفاء بعهد الله عند عقد المعاهدات .

ثم نهى عن نقد الأيْمَان بعد توثيقها بذكر الله تعالى ، إذ جعلتم الله شاهداً عليها .

وتستمر الفواصل فى التماثل والتآلف والترابط فى قوله (إن الله يعلم ما تفعلون) والفاصلة موشحة لأنها تتفق مع المعنى فى الآية ، فإن قوله (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) دليل على أنه يعلم ما يفعلون .

فهو عليم بأفعالكم وسوف يحاسبكم ويجازيكم عليها .

ثم يضرب الله مثلاً لمن نكث عهده فيقول :

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فقد شُبه من نكث عهده بعد أن أبرمه بالمرأة تغزل غزلها وتحكم فتله ثم تحله انقاضاً .

وفى لهجة تحذيرية يخاطب الله هؤلاء الناكثين لعهودهم ، إنكم تتخذون أيمانكم فى خداع الناس لكى تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها من الأمم .

ثم ينبه تعالى إلى أنه يختبرهم بما أمرهم به من احترام العهد والوفاء به وسوف يكافئ المطيع ويجازى العاصى .

ومناسبة الفاصلة فى قوله (وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) تبدو دقيقة لأنها تتضمن إنذاراً وتحذيراً من مخالفة ملة الإسلام .

فإن قوله (ما كنتم فيه تختلفون) توشيح للمعنى فى قوله (تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم) .

فإن الله ينذر ويحذر من مخالفة الحق بالخديعة والركون إلى الباطل فينزل بهم من العذاب ما يستحقون .

ثم يبين الله سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكـــافرين على الوفاء و على الإيمان ، فيقول :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فتستمر الفواصل تختم بالفعل المضارع من الأفعال الخمسة كمـــا فى الآيات السابقة (تذكرون ، تفعلون ، تختلفون ، تعملون) .

وما سبق من أفعال مضارعة وما يأتى منها ليظل النســـق العـــام للسورة متماثلاً فى كثير من الفواصل فيما عدا بعضها الذى تقاربت فيه الفواصل .

والفاصلة فى الآية السابقة فيها تمكين ، لأنه سبحانه يريد أ يؤكـــد للناس أنهم مسئولون عن أفعالهم ، سواء اتجهوا إلى الضلال أو الهدى ، فإن الله (يضل من يشاء) بخذلانه إياه عدلاً منه فيه (ويهدى من يشاء) بتوفيقه إياه فضلاً منه عليه .

فبما أن الإنسان له مطلق الحرية فيما يفعل فى الدنيا فقد أقسم الله سبحانه أن يسألهم فى قوله (ولتسألن) – موطئة للقسم .

وقد جاءت الفاصلة مؤكدة لجزاء الله يوم القيامة لكل إنسان علـــى ما فعل .

وكما نهى الله عن نقض مطلق الأَيْمَان نهى عـــن نقــض أَيْمَـــان مخصوصة فقال :

﴿ وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَـــذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وتكرار النهى " تأكيد ومبالغة فى تعظيم شـأن العهـود ، أى لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية " [١] . فتنزل أقدامكم عن طريق الحـق بعـد رسوخها ، ويصيبكم العقاب الدنيوى العاجل الذى يسوءكم .

ثم تأتى الفاصلة متناسبة تماماً مع المعنى ومكملة لـه ، (ولكـم عذاب عظيم) وتختم (بالميم) لتتقارب الفواصل ، ويتوافـق الـنغم ، ويدق الإيقاع الصوتى .

لأنه سبحانه لما ذكر إذاقة السوء فى الدنيا ، أتم المعنى بالعـذاب العظيم فى الآخرة فى نار جهنم ، ولا عذاب أعظم من عذاب نارهـا ، فإن وصف العذاب بأنه (عظيم) بصيغة المبالغة ، للدلالة علـى أنـه متبالغ فى العظم ، وللتأكيد على شدته .

ثم ينهاهم الله سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عـن العهد لأجل ذلك فيقول :

﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ينهى سبحانه الناس عن أن يتخذوا عهدهم عوضاً يسيراً حقيراً ، ويستبدلون عهد الله ورسوله بحطام الدنيا الفانى .

ثم ينبه سبحانه إلى أن ما عند الله من الأجر خير ، ولـذلك خـتم الآية بالفاصلة (إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم تعلمون أن ما عند الله باق.

فجاءت الفاصلة أسلوب شرط محذوف الجواب لدلالة السياق عليه.

---

(١) صفوة التفاسير ١٤٢/٧ .

ولأن الحذف أوقع، ولإعمال العقل أفضل ، وما دام المعنى مفهوم وأبلغ مع الحذف فإن مراعاة تآلف الفواصل – أيضاً – يستدعى ذلك .

وفى الفاصلة تعريض بمن يشترى بعهد الله ثمناً قليلاً ، فيستبدلونه بعرض الدنيا الذائل بمعنى : إن كنتم أهل العلم والتمييز بين الأشياء فسوف تعلمون أن ما عند الله خير .

وتأتى الآية التالية دليلاً على حقارة عرض الدنيا الفانية ، وتفضيل ما عند الله فى قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

جاءت الفاصلة جملة فعلية خبر(كان)، متممة للمعنى ومؤكدة على أن الجزاء بسبب الصبر سيكون (بأحسن ما كانوا يعملون) (بأسلوب تفضيل) أى ما كانوا يعملون من الطاعات ، والجزاء إنما يكون على الطاعة ، وقيل المعنى : ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم .

جزاء العمل الصالح وهيمنة الخالق :

ثم يؤكد الله سبحانه جزاء العمل الصالح ، وقدرة الله وهيمنته على خلقه وعقابه الشديد لمن لا يؤمنون ، فيقول :

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ (النحل : ٩٧ – ١٠٥) .

وفى الآية الأولى تضمين لأن أولها مرتبط بالفاصلة قبلها ، فإن الفاصلة فى قوله (ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون) تتعلق بالمعنى فى أول الآية فى قوله (من عمل صالحاً) .

وفى الآية : ترغيب كل مؤمن فى كل عمل صالح ، وتعميم للوعد ... وزيادة التمييز بذكر ذكر أو أنثى مع كون لفظ (من) شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة فى تقرير الوعد " [١] .

---

(١) فتح القدير ١٩٣/٣ .

فإن الله قد وعد ، ووعده صادق ، أن من يعمل عملاً صالحاً من المسلمين يحييهم حياة طيبة ، ويجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون .

وجاء الكلام مؤكداً ، ليتعظ المتشككون . ونلاحظ كيف جاءت جملة الفاصلة متكررة :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فإذا قيل لماذا تكررت ؟

فالجواب : أن الجزاء فى الآية الأولى يكون فى الآخرة ، بدليل قوله (ما عند الله باق) .

والجزاء فى الآية الثانية يكون فى الحياة الدنيا بدليل قوله (فلنحيينه حياة طيبة) .

وواضح ما يتركه تكرار جملة الفاصلة من ائتلاف فى الإيقاع الصوتى ، وما يتركه المعنى من أثر فى نفوس المؤمنين ، وما فى ذلك من ترغيب لهم للعمل الصالح فى الدنيا ومن أجل الآخرة .

والمعادلة سهلة إذا عمل المؤمن فى الدنيا عملاً صالحاً ، وأخلص النية لله ، وترك المعاصى ، فإن له الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة .

أما قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

فالآية وردت بأسلوب الشرط ، فقد اشترط عند قراءة القرآن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، وهى من جملة الأعمال الصالحة

التى يقوم بها المؤمن ، وبذلك يتضح صلة الآية بما قبلها وترتب المعنى على ما سبق .

ففى الفاصلة تمكين حيث وردت لوصف الشيطان بصيغة المبلغة (الرجيم) .

وختمت الفاصلة بحرف (الميم) لتتقارب الفواصل فيتتابع الإيقاع الصوتى ممتداً ومتواصلاً " وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها ، للتنبيه على أنها كسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم " [١] .

ولفظ (الرجيم) فيه زيادة وإطناب ، وإنما ذكر الصفة للذم .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

واضح التضمين بارتباط الفاصلة (الشيطان الرجيم) بما بعدها فى قوله (إنه ليس له سلطان) لأن الحديث ممتد عن الشيطان ، فإنه ليس له سلطان على المؤمنين .

والتوشيح لأن أول الآية يتضمن المعنى فى الفاصلة فإن قوله (على الذين آمنوا) يدل على أنهم (على ربهم يتوكلون) .

فالمؤمنون هم الذين يفوضون أمورهم إليه وحده ، " فإن الإيمان بالله وبالتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته وإن وسوس لأحد منهم لا تؤثر وسوسته وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة " [٢] .

---

(١) فتح القدير ١٩٣/٣ .

(٢) فتح القدير ١٩٤/٣ .

ثم تأتى الآية الثالثة ، ويستمر الكلام عن الشـيطان ، ويتواصـل الحديث عنه فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .

فإنه سبحانه يُطمئن المؤمنين أن سلطان الشيطان لا يكون إلا على الذين يتخذونه ولياً ويطيعونه فى وساوسه .

وجاءت جملة الفاصلة معطوفة (بالواو) فى قوله (والذين هم به مشركون) وقيل إن الضمير يعود على (لفظ الجلالة) بمعنى : والذين بالله مشركون .

وقيل إن الضمير فى (به) يعود على الشيطان بمعنى : الذين من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله .

وقد يكون بمعنى:والذين به أى بجعله ولياً لهم أصبحوا مشركون بالله.

وواضح ائتلاف الفاصلة وتمكنها من الآية ودلالتها على المعنـى لأن من كان الشيطان ولياً له فإنه مشرك بالله فالفاصلة متممة للمعنى .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَـزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

إنه الأسلوب المعجز ، حيث يأتى الالتفات من ضمير المتكلم (إذا بدلنا) ثم يعقبه بضمير الغائب فى الجملة الاعتراضية (والله أعلم بمـا يُنَزِّل) .

ليأتى بعد ذلك جواب الشرط فى قوله (قالوا) بأنه أنت يا محمد مفترٍ ثم يأتى خطاب الله سبحانه مؤكداً عدم علمهم .

ولنتأمل قولهم (بل أنت) وقوله تعالى (بل أكثــرهم) . فــالرد عليهم بنفس أسلوبهم .

ينبه سبحانه على كفر هؤلاء المنكرين ، الذين يتهمون الرسول ﷺ بأنه مفتر أى كاذب ، لأنه يذكر آية ثم ينسخها بآية أخرى ، فمن جهلهم لا يعلمون الحكمة من النسخ والله أعلم بما نَزّل ، وله فى ذلك حكم .

فرد سبحانه عليهم بقوله : (بل أكثرهم لا يعلمون) ليتطابق علمه مع عدم علمهم طباق سلب .

وتأتى الفاصلة مكملة للمعنى مؤتلفة مع ما سبق فى الآية ، ولــو تركت لنقص المعنى .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّــتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

لم يكتف سبحانه بالرد على الكفار بأنهم لا يعلمون ، بل زاد على ذلك بمخاطبة الرسول ﷺ .

لكى يقول لهم : إن القرآن نزله روح القــدس (جبريــل عليــه السلام) أى : نزله الروح المقدس من أدناس البشرية بــالحق ، ليثبــت الذين آمنوا على إيمانهم ولكى يكون هدى وبشرى للمسلمين .

وختمت الآية بالفاصلة (للمسلمين) وكما هو واضح فإن الجــار والمجرور مناسب تماماً لختم الآية .

لأنه لا يكون القرآن هدى وبشرى إلا للمسلمين .

ثم تأتى الآية التالية تؤكد أن القرآن من عند الله وأنه جاء بلســان عربى مبين فيقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يريد: قد علمنا مقالة هؤلاء الكفار يقولون إنما يُعلمُ محمداً القرآن واحد من البشر غير ملك واختلف فى تعيين هذا الذى ادعوا أنه يعلمه .

وفى جملتين مستأنفتين يرد عز وجل عليهم بأن : هذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح ، فكيف تَدَّعون أن محمداً يُعلمُهُ أعجمى ، وأنتم أهل فصاحة وبلاغة ولم تستطيعوا أن تأتوا ولو بآية مثله .

وبهذا الرد يبطل طعنهم ويثبت كذب إدعائهم ، فجاءت جملة الفاصلة تطابق ما قبلها (أعجمى ، ولسان عربى) .

وتختم الفاصلة بلفظة (مبين) صفة (للسان) لإثبات فصاحة القرآن وبلاغته .

فالصفة جاءت من باب الإيغال ، لأن الكلام يتم بدونها ولكن ذكرها إيضاح لصفة اللغة العربية التى وردت فى القرآن ، وهو من الإطناب ، الذى يفيد – أيضاً – أنه لا حجة للمشركين لأن القرآن نزل بلغتهم ولسانهم واضحاً .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ففى الآية توبيخ بعد ادعائهم على الرسول ﷺ .

يوبخهم ويهددهم بأسلوب غير مباشر، وهو: إن الذين لا يصدقون آيات الله وينكرونها بعد التبليغ والبيان والتوضيح بالوقوف على كل هذه

النعم التى أنعم الله بها عليهم – إذا صموا آذانهم بعد ذلك – فـإن الله لا يهديهم فى الدنيا ، وسوف يعد لهم العذاب الأليم .

وردت الفاصلة متناسقة مع المعنى ، لأنه بسبب ما هم عليه مـن الكفر والتكذيب لآيات الله يعذبهم .

وخُتمت الفاصلة بصفة العذاب (أليم) صيغة مبالغة ، فتقاربـت وتآلفت مع الفاصلة قبلها (مبين) .

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُـمُ الكَاذِبُونَ ﴾ .

هكذا يأتى رده سبحانه وتعالى شديداً ، لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى الرسول ﷺ .

ولأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم فالكذب طبيعتهم هم ولـيس لمـا قالوا (إنما أنت مفتر) وإنما لأنهم (هم الكاذبون) .

حيث جاء أسلوب قصر (بإنما)، يقصر الكفار لكونهم لا يؤمنون بآيات الله فإنهم هم من يفترى الكذب .

أى أنتم من يفترى الكذب، أما محمداً فإنه رسول المؤمنين وإمامهم.

وتأتى جملة الفاصلة (أولئك هم الكاذبون) فيهـا تصـدير لأن القرينة فى الفاصلة لفظية .

فقد ذكر فى الآية لفظ الفاصلة فى قوله (إنما يفترى الكذب) .

وجاءت الفاصلة بأسلوب القصر بضمير الفصل (هم) وقصرهم على الكذب دون غيرهم . وفى ذلك تأكيد وتثبيت لكذبهم .

ومن الملاحظ أن اسم الإشارة (أولئك) أو (هــؤلاء) يتكــرر كثيراً مع (ضمير الفصل) فى أيات القرآن .

ولا شك أن فى الصياغة إيقاع صوتى مميز ، وتكــراره يعطــى القرآن خصوصية فى استعمال الصيغ المتكررة فى الفاصلة ، والدالــة فى ذات الوقت دلالة دقيقة على المعنى .

الارتداد ثم العودة من الكفر إلى الإيمان :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَـئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُـمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِـي الآخِـرَةِ هُـمُ الخَاسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون ﴾ (النحـل : ١٠٦ - ١١١) .

وقوله فى الآية الأولى (من كفر) أى من ارتد إلى الكفـر بعـد الإيمان ، باستثناء من أكره على الكفر وقلبه مؤمن .

فإن حال هذا المرتد الذى شرح بالكفر صدراً أى طابـت نفسـه بالكفر ، فعليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم .

هكذا يستثنى الله من ارتد مكرهاً لأن حاله أنه مؤمن قلبه ولا إثم عليه ولكن الذنب على من ذاق حلاوة الإيمان ثم ارتد إلى الكفر .

وفى الآية تغليظ لهذا الجرم الذى وقع فيه المرتدون ، فجمع بـين غضب الله والعذاب العظيم .

وقد يلاحظ القارئ أن (العذاب) قد يوصف فى بعـض الآيـات بأنه (أليم) وقد يوصف بأنه (عظيم) أو (شديد) .

وكلها صيغ مبالغة تدل على عظم ما يلاقيه الكافر يوم القيامة وإن كان لفظ (عظيم) أشدها لأنه عذاب لا يعرف مقداره .

ومجئ جملة الفاصلة (لهم عذاب عظيم) بعد (عليهم غضب من الله) فيه تمام المناسبة .

وقد زاد من التناسق الصوتى الجمالى فى الآية المطابقة البديعة بين (عليهم) و(لهم) وكيف أنه لم يقل (وعليهم عذاب) لأن (لهم) كأن العذاب منحة أو عطاء لهم أى يكافئهم بأن لهم الجزاء على ما أقدموا عليه من كفر ، فجعل العذاب ، نتيجة حتمية لغضب الله عليهم . بمعنى إذا كفروا وارتدوا أغضبوا الله وإذا أغضبوا الله عذبهم .

لأن غضب الله سبحانه ، يترجم عملياً بالعذاب ، ووصفه بالعظيم زيادة مبالغة وتأكيد على شدته التى فاقت كل شدة . فلو قيل (كبير) أصبح للعذاب مقدراً أما (العظيم) فلا مقدار له ولا حدود للعظم فيه .

إن هؤلاء المرتدين لم يكتفوا بالارتداد عن دين الحق وإنما أكرهوا غيرهم على الارتداد ، ومع ذلك ظلت قلوبهم (مطمئنة بالإيمان) .

فيتضح بذلك مناسبة الفاصلة وتمكنها فى مكانها ، وإتمامها للمعنى بالإضافة إلى هذا التناغم الصوتى البديع الذى أحدثته مع ما قبلها من صياغات فى الآية .

فإن الفاصلة القرآنية تعطى الآيات لوناً مميزاً من القول وتمنح القارئ الذى فتح الله عليه هذا الهدوء والسكينة والشعور بمتعة تَفُوقُ كل قول أدبى منثور .

إنه ذلك التركيب المعجز الذى تتضافر فيه الفاصلة مع باقى أجزاء الآية ، وتتضافر فيه آيات السورة كلها وينسجم اللحن الخالد المعجز .

لتتكامل تلك المنظومة الإلهية في أروع وأبدع صورها .

إن المؤمن يقرأ القرآن كل يوم وكل ساعة ، فلا يزداد إلا إيماناً ويقيناً وفرحة ، بما يقرأ من نظم معجز .

ولا يشعر المؤمن ويحس إلا بمزيد من الدهشة والإعجاب ، والروعة ، لهذا النسيج المتكامل المتوازن ، وهذا التركيب المتلائم المتتابع ، الذى يسكن القلب ويقر فى الذاكرة بمجرد سماعه .

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ .

وتتعلق الآية بالفاصلة قبلها فيما يعرف بالتضمين .

لأنه سبحانه حين قال (لهم عذاب عظيم) علل ذلك فى الآية التالية بأنه بسبب ما فعلوه من ارتداد للكفر .

وذلك يعنى أنهم استحبوا الحياة الدنيا وفضلوها على الآخرة .

وتأتى جملة الفاصلة (وإنه لا يهدى القوم الكافرين) معطوفة على قوله (استحبوا) .

فجاءت الفاصلة من التوشيح لأن من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة يُحْرَمُ من الهداية ، وهو كافر .

ففى الآية ما يشير بالمعنى إلى الفاصلة ، حتى أنها تعرف من قبل قراءتها .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ .

يلاحظ المتلقى كيف تتواصل الآيات وتترابط لأن الموصوف واحد وهم الكافرون .

لذلك نلحظ التضمين فى تعلق الفاصلة (لا يهدى القوم الكافرين) بالآية بعدها .

إذ يصفهم الله سبحانه بأنهم هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم ، وأسماعهم وإبصارهم ، نتيجة إصرارهم على الكفر وعنادهم فى الحق وعدم إذعانهم للحق .

ثم تأتى الفاصلة مع تكرار اسم الإشارة (وأولئك) معطوفاً بالواو على (أولئك الذين طبع الله) للتعيين والتحديد ولكى يكون الوصف عليهم مباشرة فيقول (وأولئك هم الغافلون) بقصرهم على الغفلة بضمير الفصل (هم) .

أى أنهم بذلك غافلون تمام الغفلة عن تدبر العواقب نتيجة إصرارهم وعنادهم فهم متناهون فى الغفلة .

ويبدو بوضوح تناسب الفاصلة مع معنى الآية فإن العودة للكفر ، والاستمرار عليه رغم التبليغ والتحذير والإنذار من النبى ، كفيل بغضب الله .

ولذلك فإن الله يتركهم ولا يهديهم ، فتكون الصفة الغالبة عليهم بعد ذلك هى الغفلة ، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم .

ثم قال تعالى : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

والكلام مستمر عن هؤلاء المرتدين عن دين الحق ليصفهم الله سبحانه بصفة أخرى تضاف إلى وصفهم بـ (الغضب من الله والعذاب العظيم . واختيار الدنيا على الآخرة ، وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم. وجعلهم من الغافلين) ثم (الخسران فى الآخرة) .

وتكرار لفظ (لا جرم) بمعنى (حقاً ، ولا شـك ، ولا ريـب) للتأكيد على أنهم الخاسرون فى الآخرة لأنهم ضيعوا كل فرصـة فـى حياتهم تقربهم من الله .

فجاءت الفاصلة (هم الخاسرون) بأسلوب القصر بضمير الفصل ، للتأكيد على أنهم الكاملون فى الخسران .

وتمكين الفاصلة من الآية واضح لأن من حالهم كذلك فى الآيـات السابقة ، لا يحصلون إلا على الخسران .

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُـوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقوله (ثم) للدلالة على تباعد حال هؤلاء المؤمنين ، عن حـال أولئك الكافرون ، أى : إن الله مع الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان ، من بعد ما فتنوا بإغوائهم وتعذيبهم للارتداد .

و(ثم) الثانية تدل على أن ما ترتب عن افتتانهم للمؤمنين عكس ما ظن الكافرون إذ أنهم جاهدوا فى سبيل الله وصبروا على ما أصابهم.

فتأتى الفاصلة بعد ذلك فى قوله (إن ربك بعدها لغفور رحـيم) أى إن كانوا أُكرهوا على الكفر وفتنوا فى دينهم ، ثم جاهدوا وصبروا ، ثم هاجروا بالحق فإن الله بعد ذلك سيغفر لهم ويـرحمهم لأنـه لا إثـم عليهم فى إكراههم .

فتبدو الفاصلة مناسبة للمعنى وفيها توشيح لأ معنى قوله (إن ربك للذين هاجروا) مؤداه أن الله يغفر لهم ويرحمهم فى قوله (لغفور رحيم).

ومجئ الفاصلة واللفظ قبلها بصيغة المبالغة علـى وزن (فعـول فعيل) زيادة فى التأكيد على ما سوف يشملهم الله من غفران ورحمة .

بالإضافة إلى ما يحدثه هذا التناسق الصوتى بين اللفظين من تطريب يتآلف وينسجم مع ما مضى من فواصل .

ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون ﴾ . . .

أى يوم يأتى كل إنسان – يوم القيامة – يجادل ويخاصم عن نفسه سعياً فى خلاصها ، ولا يهمها غيرها ، فتُعطَى جزاء ما عملت من غير بخس ، ولا نقصا .

لأن الله لا يظلم أحداً فيبخسه حقه ، والآية تشير إلى أن المجادلة يوم القيامة لا تنفع ، لأن حساب الله يوفى كل نفس حقها .

والفاصلة فى قوله (وهم لا يظلمون) بالقصر بضمير الفصل وواو الحال ، أى وحالهم أنهم لا يظلمون .

فيتبين مناسبتها لما قبلها ، لأن فيها إيغال بزيادة المعنى ، للتأكيد على أن قوله (وتوفى كل نفس ما عملت) يتم بكل عدل فإن الله لا يظلم أحداً .

وفى ذلك إشارة إلى أن الجزاء بقدر العمل ، مما يُرَغِّب ويُحَفِّز المؤمنين على الامتثال والإكثار من العمل الصالح .

وذكر الفعل مبنياً للمجهول ، لتتلائم الفاصلة وتتآلف مع ما قبلها لأنه لو قيل (وهم لا يظلمهم الله) لخرجت الفاصلة عن السياق المعتاد فى السورة .

وكذلك ففى البناء للمجهول تعظيم وإكبار للمانح المعطى الذى لا يقع منه الظلم أبدا .

ضرب الأمثال لأهل مكة :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ *مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(النحل: ١١٢ – ١١٩) .

وضَرَبَ متضمن معنى (جَعَل) ، بمعنى (وضرب قرية مثلاً)، فتأخر ذكرها ، احترازاً من أن يقع الفصل بينها وبين صفاتها .

فقد ضرب الله مثلاً لأهل مكة ، بالقرية التى عاش أهلها مطمئنين مستقرين يأتيهم الخير والرزق رغداً ولكنهم كفروا بأنعم الله ، ولم يشكروه على ما أتاهم .

فأذاقهم الله آلام الخوف والجوع ، وبذلك يكون قد سلبهم نعمة الأمن والاطمئنان ، بما كفروا وعصوا ربهم ، " فإذا قوبلت الصورة

عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ورخاء فى العيش وطيِّبِه واتساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التى كفروا بهـا والشـقاء الدائم بعد الكفر " [١] .

فإن الفاصلة (بما كانوا يصنعون) من باب التوشيح ، لأنها تتعلق بالمعنى فى الآية فى قوله (فكفرت بأنعم الله) .

فالإذاقة بمعنى العقاب نتيجة ما كانوا يصنعون .

لذلك نجد المناسبة تامة فى المعنى ، وهكذا يـأتى العديـد مـن الفواصل ، يتعلق معناها بما جاء فى الآية .

فيحدث ذلك التآلف والتوافق ، الذى يؤكد أهمية الفاصلة ودورهـا الثرى فى توضيح المعنى وتأكيده .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾.

واضح صلة الآية بما قبلها ، وما فيه من إشارة إلـى أن هـؤلاء الكفار لا حجة لهم .

فإنه قد جاءهم رسول من جنسهم يعرفونه ، وبلغهم فلم يؤمنوا بما جاء به ، بل كذبوه ، فأخذهم الله بكفرهم فعذبهم .

وهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم ، بإيقاع العذاب الأبدى عليهم نتيجة أفعالهم فى الفاصلة فى الآية السابقة (بما كانوا يصنعون) .

وواضح صلة الآية بما قبلها فى ضـرب المثـل ، فإذا كـان الله لا يظلم أحداً ، ويعطى الجزاء على قدر العمل فإن هؤلاء الكفـار هـم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بافتتناهم .

---

(١) راجع شرح الآية وتحليلها فى : قبس من البيان القرآنى ، ص ٧٢ – ٧٥ .

وجاءت الفاصلة (وهم ظالمون) بالقصر بضمير الفصل المسبوق بواو الحال ، أى : وحالهم أنهم ظالمون ، فإذا كانوا (لا يُظلمون) فهم الظالمون ، وجملة الحال فيها إيغال .

لأن فيها فضل زياة أو إفادة للمعنى ، ودلت على أن ما ينالونه من عذاب نتيجة حتمية لظلمهم .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

يلاحظ أن فى الخطاب التفات للمؤمنين ، والوصل بالفاء ، لأنه لما ضرب لهم مثل القرية وما نالها بسبب كفرها ، أمرهم بأكل ما رزقهم الله حلالاً طيباً وشكره الدائم على ما أنعم .

فإن الشكر يترتب على الأكل ويعقبه ، ولكن لم يوصل بالفاء ووصل بالواو ، لأن شكر الله لابد أن يكون فى جميع الأحوال ، وإنما الأكل واحد فيها وذريعة للشكر .

ثم جاءت الفاصلة فى قوله (إن كنتم إياه تعبدون) جملة شرط محذوف جوابها لمراعاة الفاصلة .

ولأن الجواب مفهوم من سياق الآية ، أى : إن كنتم تعبدون الله حق عبادته وتطيعوه فاشكروه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فلما أمرهم بالأكل حلالاً طيباً من رزق الله ، وَضَّحَ لهم المحرمات ، بأسلوب القصر (إنما) لزيادة التأكيد على تحريم ما ذكر .

ثم ذكر الرخصة فى تناول شئ مما حرم ، عندما يكون المرء مضطراً من غير بغى ولا عدوان، فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة.

فناسب الفاصلة مقام المقال فى الآية ، إذ أن الله لن يؤاخذ المضطر إذا أكل ما حُرم ، فإن ذكر الغفران مع الرحمة بصيغة المبالغة يناسب حال المضطر .

للتأكيد على أنه لا إثم عليه يغفر الله سبحانه له كما أنه رحيم به إذا أباح له ما حرم للضرورة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾.

لاحظ كيف رد كيدهم فى نحورهم فالافتراء خصلة فيهم ، وليست كما وصفوا رسول الله بها ، إنهم يحللون ويحرمون حسب أهوائهم .

وتكرار الكذب والافتراء فى الآية ، تقرير وتثبيت لهذه الخصلة الدنيئة فيهم .

وتأتى الفاصلة نتيجة طبيعية لافتراء الكفار وكذبهم بأنهم (لا يفلحون) أى لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم فى الدنيا ولا فى الآخرة.

فإن عدم فلاحهم بسبب أنهم ينسبون ما يحلوه وما يحرموه إلى الله كذباً وافتراءً .

ويقول تعالى : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ففى الآية الأولى (متاع) خبر لمبتدأ محذوف أى : متاعهم متاع قليل ، فى الدنيا وهو داخل فى مضمون الفاصلة قبلها (لا يفلحون) .

ومادام متاعهم فى الدنيا قليل ، لذلك فإن (لهم عذاب أليم) .

وتكرار الحكم على الكفار بالعذاب الأليم فى الآيات حسب أعمالهم المفسدة والسيئة دليل على سوء منقلبهم يوم القيامة .

وقد ناسبت الفاصلة المعنى وزيادة ، ووصف العذاب بالأليم إمعاناً فى التهديد والوعيد .

ولكى يعلم الكافرون أنه عذاب خاص بهم لظلمهم وافترائهم على الله الكذب ، ولمراعاة الفاصلة التى تتقارب مع ما قبلها وما بعدها .

وهكذا يستمر الإيقاع المتميز لمثل هذه الفواصل فى القرآن الكريم، ويستمر التواصل بين القارئ وما يقرأ ... ويظل المؤمن مشدوداً إلى آخر آية فى السورة . متلذذاً بهذا التناغم البديع الذى يقع على سمعه فيطربه ويشجيه .

ويقول تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يخص الله سبحانه وتعالى اليهود بالذكر فى قوله (وعلى الذين هادوا) " أى على اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق فى سورة الأنعام عقوبة لهم وهى (شحوم البقر والغنم وكل ذى ظفرة) وما ظلمهم الله بذلك التحريم ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك.

والفاصلة (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) من قبيل التصدير ، لأنه تقدم ذكر اللفظ بمادته فى قوله (وما ظلمناهم) .

وفى ذلك مطابقة بالسلب ، أوضحت أن ما ينالهم من عذاب ليس ظلماً لهم وإنما بسبب أنهم ظلموا أنفسهم بتعديهم على الله .

وتأخير خبر كان الجملة الفعلية (يظلمون) لمراعاة الفاصلة ، ولأن فى التقديم تخصيص أفاد التأكيد على أنهم هم ظالمى أنفسهم وليس غيرهم .

هكذا يأتى مراعاة الفاصلة مع إفادة المعنى ووضوح الدلالة .

ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فإن هذه الآية من التراكيب التى تلفت النظر فى العديد من آيات القرآن الكريم بتكرار أول الآية ، حينما يطول الكلام ، فقد تكرر قوله (إن ربك) ولكن التكرار هنا ليس لطول الكلام وإنما للتأكيد على أن الله (مع الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) .

وللتأكيد أيضاً على أنه سبحانه (غفور رحيم) لهذا الذى عصى ثم تاب .

وقوله (للذين) باللام (أى لهم وليس عليهم) دلالة على أن الله – رغم هذا الافتراء وارتكاب هؤلاء الكفار السوء ، إذا كان بسبب الجهل وعدم المعرفة – فإنه غفور رحيم إذا تابوا ورجعوا إلى ربهم ، وأنابوا وأصلحوا بعد ما ارتكبوا من قبائح .

والآية تفتح باب التوبة لكل من عصى وأَثِمْ ثم تاب وأصلح .

وتكرار الفاصلة فى السورة ثلاث مرات فى الآية (١١٠ ، ١١٥، ١١٩) وكلها جاءت فى مواقع تتناسب مع المعنى ، إذ يمنح الله المغفرة لمن يرجع إليه ، وذلك رحمة به ، وصيغة المبالغة فيها إغراء وترغيب، لأنها تؤكد أن الله سبحانه وتعالى كثير المغفرة واسع الرحمة، بلا حدود ولا مقدار .

وإتيان الفاصلة فى جملة خبرية من الضرب الإنكارى مؤكدة بـ (إن) واللام فى (لغفور) زيادة تأكيد للمنكر .

ليعلم المنكر أن ما يقوله الله هو الحق وأنه صادق فى وعده للمؤمنين ، فيزدادوا إيماناً .

وإذا كان تأخير الصفة (رحيم) لمراعاة الفاصلة ، وتقاربها مع ما قبلها وما بعدها .

فإن المعنى يستدعى تقديم المغفرة ، لأن الرحمة مترتبة على قبول الله لعبده أولاً بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ثم يتبع ذلك مزيد من التكرم عليه برحمته .

كذلك فإن التعطف بغفران الذنب يكون رحمة بالعبد من عذاب النار.

تكريم إبراهيم النبى المُجتبى :

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل : ١٢٠ – ١٢٨) .

ويأتى ذكر إبراهيم عليه السلام فى آخر السورة ، تكريماً له فهو القدوة وهو أبو الأنبياء .

فإنه لما أتم الكلام عن دفع وإبطال مطاعن المشركين ، الذين أرادوا إثبات الشرك مع الله والطعن فى نبوة محمد ﷺ ، وتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل .

جاء ذكر إبراهيم ووصفه بأنه (كان أمة) أى كان إماماً جامعاً لصفات الخير ، وكان مطيعاً لربه قائماً على أمره حنيفاً أى مائلاً عن كل دين باطل .

ثم تأتى الفاصلة فى قوله (ولم يك من المشركين) توشيحاً لأن نفى الشرك عنه دليل إيمانه بالله وحده وإيمانه يجعله (قانتاً لله حنيفا) .

إذ المعنى فى صدر الآية يوافق معنى الفاصلة ويؤكده ، وينفى عنه الشرك نفياً قاطعاً .

وفى الفاصلة رد على اليهود والنصارى فى زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً .

وقوله تعالى: ﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفى الآية تضمين ، لأن المعنى متعلق بالفاصلة قبلها (ولم يك من المشركين) فإن نفى الشرك عن إبراهيم دليل الإيمان وأول صفات المؤمن شكر الله على أنعمه فيقول سبحانه (شاكراً لأنعمه) .

وإذا كان الله اجتباه واختاره وهداه فلابد أن تكون الهداية (إلى صراط مستقيم) فيتضح مناسبة الفاصلة للمعنى وتمكنها واستقرارها مع إتمامها للمعنى .

وفى الفاصلة إيغال لأن (مستقيم) زيادة فى المعنى أفادت أنه طريق مخصوص موصوف بالاستقامة .

فإذا قيل (وهداه إلى الصراط) لم يكن معلوماً بصفته مستقيم ، فتأتى الصفة لمزيد من الإيضاح والتوكيد .

وكذلك فإن الصفة (مستقيم) تجعل الفاصلة متآلفة متقاربة مع ما قبلها وما بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

حيث يتواصل فى الآية الحديث عن إبراهيم ، فإن هدايته للصراط المستقيم تستدعى أن يجعل الله له الذكر الجميل فى الدنيا ويأتيه من خصال الخير .

وأن يمن عليه فى الآخرة فيجعله من الصالحين أى من أصحاب الدرجات الرفيعة العالية .

لذلك وردت الفاصلة فى جملة خبرية أخرى من الضرب الإنكارى، تقريراً وتأكيداً على أنه سيكون (من الصالحين) .

وقد ناسب الجار والمجرور المعنى فىالآية تماماً ، لأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً موحداً بالله وكلها من صفات الصالحين .

وقد سبق وصف إبراهيم بهذه الصفة فى سورة البقرة ، بعد ما دعى ربه فى قوله (وألحقنى بالصالحين) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

يقول الزمخشرى: " إن (ثم) فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أُوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أُولى من نعمة : اتباع رسول الله ﷺ ملته " [(١)] .

وليتكرر فى الفاصلة، نفى الشرك عن إبراهيم، فى قوله (وما كان من المشركين) فتختم الآية بالجار والمجرور ، فتتناسب الفاصلة مع (ثم أوحينا إليك) أى الوحى من الله لرسوله باتباع ملته ، تأكيداً وتقريراً.

---

(١) الكشاف ٦٤٢/٢ .

على أن محمداً لم يتبع إلا من آمن بالله وحده فقد اتبـــع إبـــراهيم عليه السلام – الذى كان حنيفاً مسلماً – وهو تأكيد آخر لـــرد مـــزاعم اليهود والنصارى أنهم على دين إبراهيم ، ومادام محمـــداً علـــى ديـــن إبراهيم حنيفاً مسلماً ، فإن اليهود والنصارى لا يشعرون بسبب عنادهم.

فإن اليهود والنصـــارى أخطأوا وكانوا جاحدين بنكـــران نبـــوة محمد ﷺ .. وقد تكرر نفى الشرك عن إبراهيم فى الفاصلتين (ولم يك من المشركين) ثم (وما كان من المشركين) تأكيداً ودليلاً علـــى أنـــه كان حنيفاً مسلماً متبعاً الحق .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيـــهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

ثم يرد سبحانه على اليهود – أيضاً – بأنه لم يكن تعظـــيم يـــوم السبت وترك العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه .

وإنما جعل وبال السبت تغليظاً على اليهود لاختلافهم فـــى الـــدين وعصيانهم لأمر ربهم أن حرم عليهم الصيد فيه ، فاصطادوا فمســـخهم قردة وخنازير .

ويتوعدهم الله بأنه سيفصل بينهم يوم القيامة ، فيجازيهم كلٌ حسب ما فعل من الثواب أو العقاب .

وجاءت الفاصلة مناسبة وفيها تصدير ، فإن لفظ الفاصلة لو أنـــه غير موجود لَكَمَّله السامع .

فقد ذكر اللفظ بمادته فى أول الآية (اختلفـــوا فيـــه) ، فجـــاءت الفاصلة (فيه يختلفون) بتأخير الفعل على معموله (فيـــه) للاهتمـــام

بالمقدم والتأكيد على أن الله لن يعاقبهم إلا بما (كانوا فيـــه يختلفـــون) بالإضافة إلى أن التأخير فى الفاصلة يساعد فى تآلف الفواصل وتماثلها.

وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

ففى الآية التفاف بديع لمخاطبة محمد رسول الله وآخـــر النبيـــين أى : ادع يا محمد إلى الإسلام بالأسلوب الحكيم وبـــالقول الصـــحيح ، واللطيف اللين ، بما يؤثر فيهم ويدفعهم للإيمان .

فإن ربك يا محمد هو أعلم بحال الضال والمهتـــدى ، فعليـــك أن تسلك معهم مسلكاً حكيماً حين تدعوهم . وليس عليك بعد ذلك هدايتهم .

فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الذى سيحاســـبهم يوم القيامة ، فيلاحظ المطابقة الطريفة والتى تؤكـــد علـــم الله الواســـع والشامل سواء لمن ضل أو للمهتدين .

فإن جادلتهم فيكون ذلك بأحسن الطرق ، وبالحجج والبـــراهين ، والرفق واللين ، والفاصلة جاءت فى قوله (وهـــو أعلـــم بالمهتـــدين) والعجيب أنه قال قبلها (هو أعلم بمن ضل) .

فكان استكمال الآية (وهو أعلم بمن اهتدى) لكن إيثار الصياغة الأخرى (أعلم بالمهتدين) لمراعاة الفاصلة .

وكذلك يستشف من قوله (من ضل) التحقير والتقليل من شأنه ، أما (المهتدين) فإن مجئ الفعل من الأفعـــال الخمســـة المعبـــر عـــن الجماعة ومعرفاً بأل ، فيه تقدير لشأنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ .

ثم يأتى أسلوب التفات آخر حيث يخاطب سبحانه المؤمنين بأسلوب شرط ، أى يشترط عليهم إن عاقبوا بسبب ما ظلموا أن يكون عقابهم بمثل ما عوقبوا به، ولا يزيدوا.

ثم ينبه سبحانه إلى أن الصبر على الأذى والظلم ، والعفو عند المقدرة أفضل فجاءت الفاصلة مصدرة ، لأنها تعود بمادتها إلى لفظ فى الآية (صبرتم ، ثم قال (لهو خير للصابرين) أى ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل . وهذا دعوة إلى الصبر . وترك القصاص ، وذلك أفضل عند الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ .

إذ جاءت الآية فيها تضمين لأنها متعلقة بالفاصلة قبلها (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) . والآية خطاب سبحانه لرسوله أن يصبر على ما يناله من الأذى فى سبيل الله .

ولا يحزن ولا يكون فى ضيق بسبب مكر الكفار وشدة عنادهم .

ثم يلفت الرسول إلى عدم الحزن على الكفار إذا لم يؤمنوا لأنه لا طائل من وراء ذلك ولن يعدلوا عن كفرهم .

ثم تأتى الفاصلة فى قوله (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) .

أى لا يضيق صدرك مما يدبرونه من مكر من كيد لك وللمسلمين.

والمكر صفة الكفار الذين كانوا يترصدون للنبى والمسلمين بالظلم، فناسب حالهم أن يكون المكر من أساليبهم .

وأخيراً يأتى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

وبهذه الآية تختتم سورة النحل ، لطمئنة الرسول ﷺ والمؤمنين فإن المؤمنين المتقين ربهم والمحسنين ، تعهد الله سبحانه بأنه سيكون معهم ينصرهم بعونه ويحفظهم برعايته .

هكذا تتضح روعة النظم القرآنى ، من نغمه الذى " ينبعث من كلماته وحروفه، وأسلوبه فحروفه متآخية فى كلماته ، لها موسيقى زنغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن ، وعندها تطمئن النفوس ، والكلمات فى تآخيها فى العبارات تنتج نوسيقى ونغماً يختص به القرآن وحده ، وأن أى كلام مهما يكن علو صاحبه فى البيان أن يكون متخلفاً عن القرآن لا يمكن أن يحلق به ، لأنه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر "[١] .

---

(١) المعجزة الكبرى : الشيخ محمد أبو زهرة ، ص ٢٨٦ دار الفكر العربى ١٩٨٠ م .

الخاتمة والنتائج

ومما توصلت الدراسة إليه بعد تحليل فواصل سورة النحل ما يلي:

- سلكت سورة النحل منهج الأسلوب المكى الذى يميل إلى العنف والشدة مع كفار مكة قساة القلب شديدى العناد ، وإلى اللين والهدوء والوعد الحسن فى مواجهة المؤمنين .
- أن النمط الأسلوبى المتمثل فى فواصل السورة لم يلتزم نهاية صوتية واحدة ، مما يدفع النفس ويوقظها لاستمرار الفواصل وتنبيه الذهن ، وإعمال الفكر .
- الوقوف على هذا السياق المعجز وهذا الترابط المعنوى بين الآيات فإن الانتقال من آية إلى أخرى يأتى سهلاً ، منطقياً ، مسايراً لتصاعد المعنى ، فالآيات فى ترتيبها هى الكيان الواحد المترابط المتواصل .
- وُجِد أن فواصل السورة معظمها من المطرف حيث اتفاق الفواصل فى حرف الروى . مما ساعد على انتظام إيقاعها ، وترابط آياتها وانسجامها وتآلفها .
- وجاء الحرف الأخير أكثره من المتماثل وبعضه متقارب ، فرفع درجة الإيقاع الصوتى البديع فى آيات السورة كلها ، مما يجعل المتلقى ، يشبع الروح ويروى القلب عند قراءتها أو سماع تلاوتها .
- إن تآلف الفواصل وانسجامها ، ثبت من الدراسة وتأكد أنها تأتى لخدمة لمعنى فى المقام الأول بالإيضافة إلى الإيقاع المتآلف .
- **جاءت الفاصلة متنوعة ، منها (التمكين ، والتصدير ، والتوشيح ، والإيغال) وإن كان التمكين حاصل فى جميع الآيات باعتبار أن بقية الأنواع تندرج تحته .**

- كما ساعدت كثرة الالتفات فى السورة وتنوع الضمائر إلـــى تنبيـــه المتلقى واستمرار متابعته للأيات حتى آخر السورة .
- كما جاءت الفاصلة ضمن أساليب مختلفة منها : الجار والمجرور ، والصفة والحال، والمطابقة ، والجمل الخبرية من الضرب الإنكارى، والقصر ، وصيغة المبالغة ، والشرط ، والتقديم والتأخير ، والحذف، والفعل من الأفعال الخمسة .
- والفاصلة التى جاءت على هيئة فعل من الأفعـــال الخمســـة وردت كثيراً ، وقد ساعد ذلك على تآلف الفواصل وانســـجامها ، وأعطـــى السورة قوة حركية وحيوية ، مع إفادة الاســـتمرارية والـــدوام فـــى الأفعال لأن معظمها أفعال مضارعة وكذلك أسماء الأفعال التى تفيد الثبوت والدوام .
- وقد جاءت كل آية مرتبطة بما قبلها وما بعدها فى تسلســـل بـــديع ، ونظم متآلف ، تنتظم فيه الألفاظ بانتظام المعانى ، فلا يوجد فيها لفظ أو حرف يمكن طرحه أو استبداله ، وإن كانت هذه صفة القرآن كما نعلمها من قبل إلا أن المعرفة شئ والاستمتاع بالوصول إلـــى ذلـــك شئ آخر .
- وقد لوحظ فى السورة أنه سبحانه وتعالى إذا عرض لموضوع جاءت الآيات متتالية تستوفى الكلام فيه حتى يأتى على كل أمر يريد سبحانه توضيحه وبيانه ، ونظم الكلام فى تراكيب متماسكة وإيقاع أخاذ .
- كما لوحظ أن الفاصلة القرآنية متصلة اتصالاً وثيقـــاً بالآيـــة وهـــذا الاتصال والتعلق فى جميع آيات القرآن .. وإن كنت أخص ســـورة النحل ، لأنها موضوع الدراسة ، فإن جميع فواصلها عالقة بالمعانى فى آياتها .

- وأثبتت الدراسة أنه لم تذكر فاصلة واحدة جاءت لمجـرد مراعـاة الإيقاع الصوتى وتآلف الفواصل وتماثلها أو تقاربها .. بل يطلبهـا المعنى فى الآية أو أن تجئ للتوضيح أو التفسير أو لزيـادة تثـرى المعنى وتؤكده ، وتزيد معنى على المعنى .
- لم يكن البحث فى الفاصلة القرآنية فى سورة النحل أمراً سهلاً ، فقد كان لزاماً البحث فى تراكيب الآية وتحليل معانيها ، ومحاولة التعمق فيها لإدراك الصلة بينها وبين الفاصلة ، فكثيراً ما تكون الصلة دقيقة تحتاج إلى النظر وإعمال العقل .
- وكان من الضرورى دراسة الأسلوب الذى ساعد فـى بنـاء جملـة الفاصلة لمعرفة اتفاق لفظ الفاصلة مع المعنى فى الآية واتساقه مع ما قبله من الفواصل وما بعده .
- وقد ثبت من السورة أن للفاصلة دور فى إبراز أهمية العلم والتفكير، والتعقل والتذكر ، والتفكر ، والاستماع .
- فقد ورد فعل (يعلمون) أكثر من مرة مع اختلاف الموضوع لإثبات أهمية العلم ، وأنه واجب على كل مخلوق ليفرق بين الحق والباطل .

الآية ٣٨ (لا يعلمون) .
الآية ٤١ (لو كانوا يعلمون) .
الآية ٤٣ (إن كنتم تعلمون) .
الآية ٥٥ (فسوف تعلمون) .
الآية ٧٤ (لا تعلمون) .
الآية ٧٥ (أكثرهم لا يعلمون) .
الآية ٩٥ (إن كنتم تعلمون) .
الآية ١٠١ (بل أكثرهم لا يعلمون) .

وكلها آيات تدل على وجوب علم الكفار لإدراك الحق ، وأنهم لو كانوا يعلمون أنه هو الحق ما أنكروه ، كذلك جاء الفعل فى جمل شرطية لحث المؤمنين على العلم لضرورته، لأنهم به يعلمون أنه الحق وأنه الإله الواحد لا شريك له.

- كذلك ورد فعل التفكير أكثر من مرة للدلالة على أهمية إعمال الفكر والتدبر ليعرفوا بفكرهم ما منَّ الله عليهم به من نعم لا تعد ولا تحصى، وذلك فى قوله :

الآية ١١ (لقوم يتفكرون) ٠

الآية ٤٤ (لعلهم يتفكرون) ٠

الآية ٦٩ (لقوم يتفكرون) ٠

- وكذلك ورد فعل التذكر لإثبات أهمية أن يتذكر الإنسان فضل خالقه عليه ونعمه الكثيرة التى منحه إياها ، فإن استمرار التذكر يدفع المؤمن لمزيد من الإيمان ، ويدفع الكافر إلى الإيمان ٠

الآية ١٣ (يذكرون) ٠

الآية ١٧ (أفلا تذكرون) ٠

الآية ٩٠ (لعلكم تذكرون) ٠

- وكذلك ورد العديد من الفواصل فى وصف الكافرين – بذكر ضمير الفصل للقصر والتوكيد – بصفات مذمومة للتأكيد وتوضيح عقاب هؤلاء المشركين وبيان جزاءهم ، بسبب كفرهم ، ومزيد عنادهم فى قوله تعالى :

الآية ٢ (وهم مستكبرون) ٠

الآية ٤٦ (فما هم بمعجزين) ٠

الآية ٧٢ (هم يكفرون) .

الآية ٨٤ (ولا هم يستعتبون) .

الآية ٨٥ (ولا هم ينظرون) .

الآية ١٠٠ (هم به يشركون) .

الآية ١٠٥ (هم الكاذبون) .

الآية ١٠٨ (هم الغافلون) .

الآية ١٠٩ (هم الخاسرون) .

الآية ١١١ (وهم الظالمون) .

الآية ١١٣ (وهم ظالمون) .

- فإن وصفهم بهذه الصفات الذميمة دليل على استمرار عنادهم وإنكارهم لخالقهم .
- وقد تكررت صيغ المبالغة وتنوعت فى وصف الله عز وجل والتأكيد على أنه سبحانه (غفور رحيم رؤف ، حكيم ، قدير) ، وكلها صفات تُرَغِّب فى الإيمان به والإنصياع لأوامره ، مثل ذلك قوله :

الآية ٧ (إن ربكم لرؤف رحيم) .

الآية ١٨ (إن الله لغفور رحيم) .

الآية ٤٧ (فإن ربكم لرؤف رحيم) .

الآية ٦٠ (وهو العزيز الحكيم) .

الآية ٧٠ (إن الله عليم قدير) .

الآية ١١٠ (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) .

الآية ١١٥ (فإن الله لغفور رحيم) .

الآية ١١٩ (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) .

فإن هذه الفواصل تفوق ما قيل فى عقاب الكافرين مثل قوله تعالى:

الآية ٦٣ (ولهم عذاب أليم) .

الآية ٩٤ (ولكم عذاب عظيم) .

الآية ١٠٤ (ولهم عذاب أليم) .

الآية ١٠٦ (ولهم عذاب عظيم) .

ومن العجيب أن يتكرر العذاب ، وأن يوصف مرة بالأليم ومـــرة أخرى بالعظيم ، والعكس .

- وسورة النحل يتمثل من خلالها صورة النص القرآنى المتكامل ، فى اتحاد النغم والإيقاع المنتظم ، المتتابع فى كل المقاطع ، فهى كلهـا كالبناء المعجز فى هندسته وترتيبه ، فحروفها وألفاظهـا وجملهـا ، ومقاطعها مؤتلفة منسجمة .

فالنغم ليس فى الفواصل وحدها ، بل فى تراكيـب آياتهـا كلهـا فالمعانى متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، تنبعث منها موسيقى داخلية ، لها جرس وإيقاع مميز ، إنه النظم المعجز الخالد .

- وقد تكررت بعض الجمل وبعض الفواصل مما أحدث نوعاً خاصـاً من الإيقاع المتوازن ، والتكرار جاء لغرض التوكيد على المعنى فى الآيات ، أو لتمكين الفاصلة ووجود ضرورة معنوية لتكرارها .
- ولأن سورة النحل مكية فقد اتصلت عناصر الإعجاز فيها بالجانـب الصوتى وكات شديدة الوضوح وسريعة النفاذ والتأثير ، لأنها موجهة لكفار مكة غلاظ القلوب ، المكذبين لرسالة محمد ﷺ ، والمنكـرين للبعث .
- والآية تتمثل فيها وحدة الموضوع بالمعنى الخاص الذى يلائم طريقة القرآن فى العرض ، وتختلف عن طرق التأليف عند البشر .

- فمن الملاحظ أن للسورة طابعها الخاص ، وروح عام يسرى في جميع أجزائها وهدف واحد ترمى إليه الآيات ، وهو دعم العقيدة والتوحيد والعظة ، وكلها أمور مترابطة تصب في مجرى واحد هو الإيمان الحق .
- فلابد من فهم وحدة الموضوع في السورة من منطلق خاص بالقرآن، ولا يتكلف أحد جَهدَ تطبيقها على القرآن كما يفعل في النصوص الأدبية.
- وقد تنوعت فواصل السورة ما بين الشدة والحزم والتحذير والتهديد والوعيد ، وما بين اللين والطمأنينة والترغيب والحث والوعد بأحسن الجزاء .
- وجاء ذكر النعم التى تفضل الله بها على الناس في نسق متتابع ، مرتب ومتعلق بعضه ببعض ، في أسلوب منطقى بارع التصوير ، مع تركيز الدعوة للتفكر والنظر والتعقل في الكون وفي الخلق ، وكذلك الدعوة باستمرار للتذكر وللتيقن .

فقد خدمت الفاصلة القرآنية بأنواعها وأنماطها الرسالة الموجهة للناس في سورة النحل ، بدوام النظر وطول التفكر في الوجود وفي الخالق القادر العظيم .

فالكفر والإلحاد سيظل على الأرض والإسلام لن يُنتزع من القلوب المؤمنة ، لذلك كان لابد من وجود كتاب زاجر لأولئك ومطمئن لهؤلاء.

فكانت سورة النحل على هذا النمط الموسيقى المعجز تبصرة للناس ، ترتلها الألسن فتنعم بجمال معانيها ودقة نظمها وطلاوة وحلاوة إيقاعها .

ورغم ما تميزت به السور المكية من العبارات الموجزة ، والفِقَر القصيرة فإن سورة النحل تميزت بطول العبارة ، والفِقَر الطويلة ، مما دفع البعض إلى الظن أنها قد تكون مدنية ، ولكن أُتفق على أن بعض آياتها مدنية ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾[1]. إلى آخر السورة.

وقد تميزت فواصلها بالقصر مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة .

كما تميز لفظ الفاصلة بشدة قرعه على المسامع ، فى مثل (فإياى فارهبون) (هم الكاذبون) (هم الغافلون) (ولهم عذاب أليم) .

وكلمة أخيرة : فإنه قد اتضح كيف أن فواصل سورة النحل تأتى فى مكانها المكين وفى مقطعها الذى يستدعيها ، كما وضح دورها فى تمام المعنى وتوضيحه ، ودورها الهام – أيضاً – فى تحسين الإيقاع الصوتى وانسجامه .

---

(١) سورة النحل : آية ١٢٦ .

المصادر والمراجع

١ – الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٣ ، ٤ دار التراث، القاهرة.

٢ – إعجاز القـرآن والبلاغـة النبويـة للرافعـى ، ط التجاريـة ، ط ٧ (١٣٨١هـ/١٩٦١م) ، القاهرة .

٣ – الإعجاز البيانى للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، دار الفكر العربى.

٤ – إعجاز القرآن للباقلانى ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف، ط ٤ القاهرة .

٥ – الإيضاح للخطيب القزوينـى ، دار الكتـب العلميـة ، بيـروت ط ١ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥) .

٦ – البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، جـ ٥ دار الكتب العلمية ، بيروت، ط ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

٧ – البرهان للزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل جـ ١ ط ٣ دار الفكـر العربى ١٩٨٠، ط ١ دار إحياء الكتب العربيـة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م القاهرة .

٨ – البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ، د. محمد أبـو موسـى ، دار الفكر العربى .

٩ – البناء الصوتى فى البيان القرآنى ، د. محمد حسن شرشـر ، ط١ دار الطباعة المحمدية ، ١٩٨٨ القاهرة .

١٠ – التفكير فريضة إسلامية للعقاد ، م العصرية ، بيروت صيدا .

١١ – الجواهر فى تفسير القرآن للشيخ طنطاوى جوهرى، جـ١ ط ٢، م الحلبى ١٣٥٠ هـ .

١٢ – خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى ، م وهبة ط ٣ القاهرة.

١٣ – دراسة أدبية لنصوص من القرآن ، محمد المبارك ط ٤ ، دار الفكـر ١٣٩٢هـ/١٩٧٣ .

١٤ – درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسـكافى ط ٢ بيـروت لبنـان ١٩٧٧ .

١٥ – دلالات التراكيب ، د. محمد أبو موسـى ، م وهبـة ط٢ ، القـاهرة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧م .

١٦ – صفوة التفاسير ، محمد على الصابونى ، دار الرشيد ، سوريا حلب .

١٧ – الفاصلة القرآنية ، د. عبد الفتاح لاشـين ، دار المـريخ ، الريـاض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

١٨ – فتح القدير للشوكانى ، جـ ٣ دار المعرفـة بيـروت ، توزيـع دار المعارف بالرياض .

١٩ – فلسفة البلاغة ، جبر ضومط ، بيروت لبنان .

٢٠ – قبس من البيان القرآنى ، د. محمد حسن شرشر ، د ١ دار الطباعـة المحمدية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٢١ – الكتاب لسيبويه ، جـ ٢ ط الأميرية ، القاهرة ١٣١٦ هـ .

٢٢ – الكشاف للزمخشرى ، جـ ٢ دار الكتاب العربى .

٢٣ – المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربى ١٩٨٠م.

٢٤ – من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوى ، ط٣ نهضة مصر ١٣٧٠/١٩٥٠م.

٢٥ – النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم ، ط ٤ بيروت ١٩٧٧.

٢٦ – النظم القرآنى فى سورة الرعد، محمد بن سعد الدبل ، م بيروت لبنان.

فهرس الموضوعات